الباب الثاني

أنواع الجهاد ومراتبه

الفصل الأول: بين الجهاد والقتال.

الفصل الثاني: مرتبة جهاد النفس.

الفصل الثالث: مرتبة جهاد الشيطان.

الفصل الرابع: مرتبة جهاد الظلم والمنكر في الداخل.

الفصل الخامس: مواقف الناس أمام جهاد الداخل.

الفصل السادس: مرتبة جهاد اللسان والبيان (أو الجهاد الدعوي والإعلامي).

الفصل السابع: مرتبة الجهاد المدني.

الفصل الثامن: مرتبة الجهاد العسكري (أو تطور الجهاد من الدعوة إلى القتال).

obeikandl.com

الفصل الأول

بين الجهاد والقتال

ضياع الحقيقة بين طرفي الإفراط والتفريط:

مشكلتنا في القضايا العلمية والفكرية الكبرى: أننا نقع فيها عادة بين طرفي الإفراط والتفريط، فتضيع الحقيقة بينهما.

ومن ذلك: قضية الجهاد، فهناك فئة تريد أن تلغي الجهاد - مادةً وروحًا - من حياة الأمة، وأن تَشيع فيها رُوح الاستكانة والاستسلام، بدعاوى مختلقة، منها: الدعوة إلى السلام، والتسامح مع المخالفين... إلخ. ويريد هؤلاء أن يلغوا كلمة (الجهاد) - لو استطاعوا - من قاموس الأمة، وأن يحذفوا الغزوات والسرايا من سيرة الرسول ﷺ ويحذفوا الفتوح - التي اشتهرت بالعدل والرحمة - من تاريخ المسلمين، وأن يحذفوا من القرآن: السور والآيات الكثيرة التي تُرغِّب في الجهاد، وتُنوِّه بالجهاد، وأن يحذفوا أبواب الجهاد من كتب الحديث، من الصِحاح والسنن، وأن يحذفوا كتب الجهاد والسِّير من مدوَنات الفقه الإسلامي.

وهؤلاء هم دعاة فلسفة (تجفيف المنابع)، ويقصدون بها: المنابع الأصيلة التي يُستقى منها الإسلام الحق، الإسلام الذي يغرس العزَّة والكرامة في نفس المسلم، والغَيرة على الحُرُمات، والشجاعة في الحق، والمقاومة للباطل، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإقامة الشهادة لله، والاستعداد لبذل النفس والمال في سبيل الله، لا يبالي بلوم اللائمين، ولا يخشى انتقام الجبارين. وهذه الفئة: عملاء لأعداء الإسلام، خونة لله ولرسوله وللمؤمنين، وهم مرفوضون من جمهور الأمة.

وفي مقابل هؤلاء فئة على النقيض من هؤلاء، تريد أن تجعل من فكرة (الجهاد) حربًا ضروسًا، تشنُّها على العالم كلِّه، مَن سالم منهم، ومَن حارب، فالأصل في عَلاقة المسلمين بغيرهم هو: الحرب. والأصل في الناس جميعا: أنهم أعداء للمسلمين، ويكفي أن يكونوا كفارًا ليكونوا أعداء. وقد تأثَّروا تأثُّرا عكسيا بآراء الفئة الأخرى، فردُّوا على خطئهم بخطأ آخر، وإن كان الفارق بين الفئتين جِد

كبير، فهؤلاء يبحثون ويجتهدون لنصرة آرائهم، وتجلية أفكارهم، من داخل الإسلام، محاولين أن يجمعوا من ظواهر الأدلة، ومن أقوال العلماء: ما يؤيِّد وِجهتهم، ويرجِّح رأيهم.

أما أولئك فمصادرهم غير إسلامية، وأئمتهم الذين يقلِّدونهم ليسوا من أئمة المسلمين، بل هم من الغرب أو الشرق، من بعيد، من خارج دار الإسلام.

الجهاد غير القتال لغةً وشرعًا:

وممَّا أخذتُه على بعض الباحثين من إخواني هؤلاء المخلصين: محاولتهم إزالة التفرقة بين (الجهاد) و(القتال). أعني أنهم يريدون أن يقولوا: إذا ذكر الجهاد، فليس له - إسلاميًّا - إلا معنى واحد، هو القتال في سبيل الله. وهذا صحيح من ناحية العُرف السائد، ولكنه - في رأيي وعند التحقيق - ضربٌ من التكلُّف والاعتساف لا ضرورة له، ولا مُبرِّر له، وإن قيل: لا مُشَاحة في الاصطلاح.

ذلك: أن لفظ (الجهاد) غير لفظ (القتال) لغةً وشرعًا. فـ(الجهاد) لغةً: مصدر (جَاهَد يُجَاهِد، جِهَادًا ومُجَاهَدة) مشتقٌّ من (جَهَد يَجْهَد جَهدًا) أي: ارتكب المشقة، أو احتمل المشقة، أو بذل الجُهد.

بخلاف لفظة (القتال) فهي مصدر على وزن (فِعال) من: قَاتَل يُقَاتِل قِتَالاً ومُقَاتَلَة، وهي مشتقَّة من كلمة: قَتَلَ يَقتُل قَتلاً. أي: أزهق روح غيره.

فالكلمتان مختلفتان لغة: اشتقاقًا ودلالة. فالجهاد من غير شك أوسع دائرة من القتال.

وهما كذلك مختلفتان شرعًا، وإن غلب على الفقهاء المتأخرين تعريف الجهاد بأنه: القتال في سبيل الله. وذلك باعتبار أنه أعلى مراتب الجهاد.

ولكن هذا لا ينفي أن حكمهما مختلف عند التحقيق والتفصيل، وأن دائرة الجهاد تتَّسع للقتال ولغيره من مراتب الجهاد. كما سنُبيِّن بعد.

فحكم الجهاد: أنه واجب على كل مسلم ومسلمة، بنفسه أو بماله، أو بلسانه، أو بقلبه، وذلك أضعف الإيمان.

ولا يتمُّ إيمان المسلم إلا بهذا الجهاد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

بل المؤمنون مطالَبون بأن يجاهدوا في الله ﴿حَقَّ جِهَادِهِ﴾ لا مُجرَّد جهاد، فكما أنهم مأمورون أن يتَّقوا الله حقَّ تقاته: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، هم مأمورون أن يجاهدوا في الله حقَّ جهاده، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٧، ٧٨].

ومعنى هذا أن كلَّ مسلم يجب أن يكون مجاهدًا، وليس من الضروري أن يكون كلُّ مسلم مقاتلاً، فهذا إنما يجب بأسبابه، وهو ممَّا يكفي فيه البعض عن البعض، إلا في حالات معينة، كما بيَّنا سابقًا.

وهذا يعبِّر عنه الفقهاء بقولهم: جنس الجهاد واجب على كل مسلم.

الجهاد في القرآن المكي:

ومن الدلائل على أن الجهاد غير القتال: أن الجهاد ذُكر في آيات القرآن المكي، قبل أن يشرع القتال في المدينة.

ومن الآيات التي ذكرت الجهاد في القرآن المكي: قوله تعالى في سورة النحل: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠].

وسورة النحل مكيَّة بالإجماع، وقد استثنى بعضهم آية أو آيتين أو ثلاثا منها، وزعم أنها مدنية، وليس منها - على أية حال - هذه الآية. ودعوى استثناء بعض الآيات من السور المتفق على أنها مكية: دعوى في معظمها غير مُسلَّمة، وتحتاج إلى تمحيص وتحقيق.

والآية تتحدث عن الذين هاجروا من بعد ما فتنوا، أي بعد ما أُوذوا وعُذِّبوا، وهذا قد يوهم أن الآية بعد الهجرة إلى المدينة، ولكن لا يخفى على دارس

السيرة: أن المسلمين هاجروا إلى الحبشة في العهد المكي مرتين. كما تتحدَّث الآية عن جهادهم وصبرهم بعد ذلك: ﴿ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا﴾، والجهاد هنا: جهاد الدعوة والتبليغ، وجهاد المعاناة والاحتمال، وهذا ما قام به المسلمون في مكة قبل أن يهاجروا إلى الحبشة، وفي الحبشة بعد أن هاجروا إليها، وفي مكة: احتملوا الأذى والاضطهاد والحصار والعذاب، ولذا قال: ﴿مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾، وفي الحبشة: احتملوا آلام الغربة عن الوطن، والبعد عن رسول الله ﷺ وأصحابه. وما أشقَّه على مَنْ ذاق حلاوة الصحبة مع رسول الله ﷺ

وليست هذه الآية الوحيدة في سورة النحل، التي ذكرت الهجرة والمهاجرين، فقد جاء ذلك في آية أخرى سبقت في السورة، هي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٤١، ٤٢].

كما ذكر الله تعالى الجهاد في سورة العنكبوت، وهي سورة مكيَّة، فقد نزل في أول السورة آيات تُعزِّي المسلمين على ما أصابهم من المحن والإيذاء، فقال تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢، ٣] ثم قال: ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦]، والجهاد هنا: جهاد الاحتمال والصبر على البلاء والعذاب في سبيل الله.

وقد خُتمت السورة بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، والجهاد هنا هو: الجهاد المعنوي، الذي يشمل جهاد النفس والشيطان، مما لا يدخل في دائرة القتال.

لم يأمر الله تبارك وتعالى رسوله بالقتال عندما كان في مكة، ولكنه أمره بالجهاد - جهاد الدعوة - منذ بعثه الله. قال تعالى في سورة الفرقان عن القرآن: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٠-٥٢]، والضمير في قوله: ﴿بِهِ﴾، أي بالقرآن.

فهذه سورة مكية أُمر فيها الرسول ﷺ بجهاد الكافرين، بالحُجَّة والبيان وتبليغ القرآن. ووصف جهاده هذا بقوله: ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ للدلالة على عِظم منزلته وأهميته.

ومن ثَمَّ نرى حياته عليه السلام - من أول البعثة - كانت جهادًا متواصلاً في سبيل الدعوة، فإنه كما قال ابن القيم: (كمَّل مراتب الجهاد كلها، وجاهد في الله حقَّ جهاده، وشرع في الجهاد من حين بُعث إلى أن توفَّاه الله عزَّ وجلَّ، فإنه لما نزل عليه: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ١-٤]، شمَّر عن ساق الدعوة، وقام في ذات الله أتمَّ قيام، ودعا إلى الله ليلاً ونهارًا، وسرًّا وجهرًا. ولما نزل عليه: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤]، فصدع بأمر الله لا تأخذه فيه لومة لائم، فدعا إلى الله الصغير والكبير، والحر والعبد، والذكر والأنثى، والأحمر والأسود، والجنَّ والإنس. ولما صدع بأمر الله، وصرَّح لقومه بالدعوة، وناداهم بسبِّ آلهتهم، وعيب دينهم: اشتدَّ أذاهم له، ولمَن استجاب له من أصحابه، ونالوه بأنواع الأذى. وهذه سنة الله عزَّ وجلَّ في خلقه، كما قال تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣]، وقال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقال: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣]، فعزَّى سبحانه نبيه بذلك، وأن له أُسوة بمَن تقدَّمه من المرسلين. وعزَّى أتباعه بقوله: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝٣ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤ مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٥ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٢-٦][1] اهـ.

فأي جهاد تذكره الآية هنا لقوم مستضعفين في مكة يفتنون في دينهم، وتُصبُّ عليهم سياط العذاب في ديارهم؟ هل هو جهاد القتال؟ كلا، إذ لم يؤذن لهم فيه.

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ١١، ١٢) طبعة الرسالة بتحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط.

إنه جهاد الدعـوة وتبليغها والصبر عليـها، وتحمُّل المشاق في سبيلهـا. وهو الجهاد الذي خُتـمت به آيات السورة نفسـها - سورة العـنكبوت المكية - إذ قـال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

ومن الدلائل على أن (الجهـاد) لا يعني (القتال) دائمًا: قوله تعـالى لرسوله في آيتين من كـتاب الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣، التحريم: ٩].

ومن المقرَّر: أن المنافقـين لا يقاتَلون كما يقاتَل الكفـار المعلنون. ولو كان المراد بالجهـاد في الآية القتال لنفَّـذه النبيُّ ﷺ، امتثالاً لأمـر ربه، إذ يستحـيل عليه أن يتراخـى في أمر الله عـزَّ وجلَّ، ولكنه لم يقاتلهم علـيه الصلاة والـسلام، وهذا طبـيعي، لأنهم عـصمـوا دمـاءهم وأموالهم بقـولهم بألسنتـهم: لا إله إلا الله، وحـسابهم في باطن أمـرهم إلى الله تعـالى؛ فقـد أُمِـر عليه السـلام: أن يحكم بالظاهر، والله يتـولى السرائر. وهؤلاء المنافـقون - على عـلاَّتهم - في ظاهرهم مـسلمـون، يحضُـرون الصلوات مع المـسلمين، ويؤدُّون الزكـوات مع المسلمين، ويشهدون الغـزوات مع المسلمين، ولهذا أجمع العلماء على أن المـنافق تجري عليه أحكام الإسلام في الدنيا. وقد وصفهم القرآن بقوله: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، وقـوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ التوبة: ٥٤]، فهـم - رغم نفاقـهم - يؤدُّون الصلاة، وإن قامـوا إليها كـسالى، وينفقـون، وإن كانوا كارهين، فلهذا جاهدهم الرسول - كما أمر - ولم يقاتلهم.

وجهاد المنافقين هنا: هو جهاد الدعوة والتبليغ، وإقامة الحُجَّة، وإزاحة الشبهات من النفوس، عسى الـله أن يهدي قلوبهم، ويوقظ ضمائرهم. على نحـو ما قال الله تعالى في شأن جماعـة من المنافقين في سياق آخر: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ

﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦٠، ٦١]، ثم قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣].

فهذا الوعظ المؤثِّر والقول البليغ في الأنفس هو الجهاد المطلوب.

ومعنى الغلظة في قوله: ﴿اغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣] عدم التهاون فيما يقوم به الفريقان: الكفار والمنافقون، من كَيْد للإسلام وأهله، فلا بد أن يقاوم ذلك بشدَّة لا هوادة فيها.

من درس السيرة النبوية، وتأمَّل الهدي النبوي: تبيَّن له أن النبي ﷺ قد قام بكل أنواع الجهاد ومراتبه جميعًا، من جهاد الكلمة والدعوة، إلى جهاد الصبر والاحتمال، إلى جهاد المواجهة والقتال.

ابن القيم يشرح أنواع الجهاد ومراتبه في الهدي النبوي:

وليس أقدر على شرح أنواع الجهاد ومراحله - كما يتبيَّن من الهدي النبوي - من الإمام ابن القيم رحمه الله، فهو يقول في زاد المعاد: (لمَّا كان الجهاد ذروة سنام الإسلام وقبته، ومنازل أهله أعلى المنازل في الجنة، كما لهم الرفعة في الدنيا، فهم الأعلون في الدنيا والآخرة، كان رسول الله ﷺ في الذِّروة العليا منه، واستولى على أنواعه كلِّها: فجاهد في الله حقَّ جهاده بالقلب والجَنان، والدعوة والبيان، والسيف والسنان. وكانت ساعاته موقوفة على الجهاد، بقلبه، ولسانه، ويده. ولهذا كان أرفع العالمين ذكرًا، وأعظمهم عند الله قدرًا.

وأمره الله تعالى بالجهاد من حين بعثه، وقال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥١، ٥٢].

فهذه سورة مكية أُمر فيها بجهاد الكفار: بالحُجَّة والبيان، وتبليغ القرآن. وكذلك جهاد المنافقين، إنما هو بتبليغ الحُجَّة، وإلا فهم تحت قهر أهل الإسلام، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣، التحريم: ٩]. فجهاد المنافقين أصعب من جهاد الكفار، وهو جهاد خواصِّ الأمة، وورثة الرسل، والقائمون به أفراد في العالم. والمشاركون فيه، والمعاونون عليه - وإن كانوا هم الأقلِّين عددًا - فهم الأعظمون عند الله قدرًا.

ولـمَّا كان من أفـضل الجهاد: قول الحق مع شدَّة المعـارِض، مثل أن تتكلَّم به عند مَن تخاف سَطْوته وأذاه، كان للرسل صلوات الله عليهم وسلامه، من ذلك الحظ الأوفـر، وكان لنبـيِّنا صلوات الله وسلامـه عليه، من ذلـك أكمل الجـهاد وأتمَّه.

ولـمَّا كان جهـاد أعداء الله في الخارج فرعًا على جهاد العـبد نفسه في ذات الله، كما قال النبي ﷺ: «المجاهد مَن جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر مَن هجر مـا نهى الله عنه»[1]. كـان جهـاد النفس مُقـدَّما على جـهاد العـدو في الخارج، وأصلاً له، فـإنه ما لم يجاهد نفسه أولا لتـفعل ما أُمـرت به، وتتـرك ما نُهيت عنه، ويحاربها في الله، لم يمكنه جهاد عدوه في الخارج، فكيف يمكنه جهاد عدوه والانتصاف منه، وعدوه الذي بين جنبـيه قاهر له، متسلِّط عليه، لم يجـاهده، ولم يحاربه في الله؟ بـل لا يمكنه الخروج إلى عـدوه، حتى يجـاهد نفسه على الخروج.

فهـذان عدوان قـد امْتُحن العـبدُ بجـهادهما، وبـينهما عـدوٌّ ثالث، لا يمكنه جهـادهما إلا بجهاده، وهو واقف بينهـما يُثبِّط العبد عن جهادهمـا، ويُخذِّله، ويرجف به، ولا يزال يُخـيِّل له مـا في جـهادهمـا من المشـاقِّ، وترك الحظوظ، وفوت اللذات والمشتهيـات، ولا يمكنه أن يجاهد ذينك العدوين إلا بجهاده، فكان جهاده هو الأصل لجهادهمـا، وهو الشيطان، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا**﴾ [فاطر: ٦]. والأمر باتخاذه عدوًّا تنبيـه على استفراغ الوُسع في محاربتـه ومجاهدته، لأنه عدوٌّ لا يَفْتُـر، ولا يُقَصِّر عن محاربة العـبد على عدد الأنفاس.

فهذه ثلاثة أعـداء، أُمر العبد بمحاربتـها وجهادها، وقد بُلي بمحـاربتها في هذه الدار، وسُلِّطت عليـه امتحـانًا من الله له وابتلاء، فأعطـى الله العبد مـددا وعُدَّة وأعـوانًا لهذا الجـهاد، وأعطى أعـداءه مددًا وعُـدَّة وأعوانًا وسـلاحًا، وبَلاَ أحـدَ الفريقين بالآخر، وجعل بعضهم لبعض فتنة، ليبلوَ أخبارهم، ويمتحن مَن يتولاه، ويتولَّى رسله، ممَّن يتولى الشيطان وحزبه، كما قال تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ**

(١) رواه أحمد في المسند عن فَضَالة بن عُبيد، وقد سبق تخريجه صـ٦٦.

﴿فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾ [الفرقان: ٢٠]. وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١]. فأعطى عباده الأسماع والأبصار، والعقول والقوى، وأنزل عليهم كتبه، وأرسل إليهم رسله، وأمدَّهم بملائكته، وقال لهم: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢]، وأمرهم من أمره بما هو من أعظم العون لهم على حرب عدوِّهم، وأخبرهم أنهم إن امتثلوا ما أمرهم به، لم يزالوا منصورين على عدوِّه وعدوِّهم، وأنه إن سلَّطه عليهم، فلتركهم بعض ما أُمروا به، ولمعصيتهم له، ثم لم يوئِّسهم، ولم يقنِّطهم، بل أمرهم أن يستقبلوا أمرهم، ويداووا جراحهم، ويعودوا إلى مناهضة عدوهم فينصرهم عليهم، ويظفرهم بهم، فأخبرهم أنه مع المتقين منهم، ومع المحسنين، ومع الصابرين، ومع المؤمنين، وأنه يدافع عن عباده المؤمنين ما لا يدافعون عن أنفسهم، بل بدفاعه عنهم انتصروا على عدوهم، ولولا دفاعه عنهم، لتخطفهم عدوهم، واجتاحهم . . .

وهذه المدافعة عنهم بحسب إيمانهم، وعلى قدره، فإن قوي الإيمان، قويت المدافعة، فمَن وجد خيرًا، فليحمد الله، ومَنْ وَجَدَ غير ذلك، فلا يلُومنَّ إلا نفسه)[1].

الجهاد في الله حق الجهاد:

وممَّا ذكره المحقِّق ابن القيم هنا: (أن الله تعالى أمر المؤمنين في كتابه أن يجاهدوا فيه حق جهاده، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج ٧٧، ٧٨]، كما أمرهم أن يتَّقوه حقَّ تقاته بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وكما أن حقَّ تقاته: أن يُطاع فلا يُعصى، ويُذكر فلا يُنسى، ويُشكر فلا يُكفر، فحقُّ جهاده: أن يجاهد العبد نفسه، ليسلم قلبه ولسانه

(١) زاد المعاد (٣/ ٥-٧).

وجوارحه لله، فيكون كلُّه لله، وبالله، لا لنفسه، ولا بنفسه، ويجاهد شيطانه بتكذيب وعده، ومعصية أمره، وارتكاب نهيه؛ فإنه يعِد الأماني، ويمنِّي الغرور، ويعِدُ الفقر، ويأمر بالفحشاء، وينهى عن التقى والهدى، والعفة والصبر، وأخلاق الإيمان كلها، فجهاده بتكذيب وعده، ومعصية أمره، فينشأ له من هذين الجهادين قوة وسلطان، وعُدَّة يجاهد بها أعداء الله في الخارج، بقلبه ولسانه ويده وماله، لتكون كلمة الله هي العليا.

واختلفت عبارات السلف في تفسير (حق الجهاد):

فقال ابن عباس: هو استفراغُ الطاقة فيه، وألا يخاف في الله لَوْمَةَ لائم.

وقال مقاتِل: اعملوا لله حقَّ عمله، واعبدوه حقَّ عبادته.

وقال عبد الله بن المبارك: هو مجاهدةُ النفس والهوى.

ولم يُصِب مَن قال: إن الآيتين منسوختان، لظنِّه أنهما تضمنتا الأمر بما لا يطاق.

وحقُّ تقاته، وحقُّ جهاده: هو ما يطيقه كل عبد في نفسه، وذلك يختلف باختلاف أحوال المكلفين في القدرة، والعجز، والعلم، والجهل. فحقُّ التقوى، وحقُّ الجهاد بالنسبة إلى القادر المتمكِّن العالم: شيء، وبالنسبة إلى العاجز الجاهل الضعيف: شيء، وتأمَّل كيف عقَّب الأمر بذلك بقوله: ﴿**هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾ [الحج: ٧٨]، والحرج: الضيق.

بل جعله واسعًا يَسَع كلَّ أحد، كما جعل رزقه يَسَع كلَّ حي، وكلَّف العبد بما يَسَعه العبد، ورزق العبد ما يَسَع العبد، فهو يَسَع تكليفه، ويَسَعه رزقه، وما جعل على عبده في الدين من حَرَج بوجه ما، قال النبي ﷺ: «بُعثتُ بالحنيفية السَّمْحة»[1]، أي: بالمِلَّة، فهي حنيفيَّة في التوحيد، سمحة في العمل.

---

(١) رواه أحمد في المسند (٢٢٢٩١)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف، والطبراني في الكبير (٨/ ٢٢٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أحمد والطبراني وفيه علي بن يزيد الألهاني وهو ضعيف (٥/ ٥٠٨)، وروى أحمد في المسند (٢٤٨٥٥): «... لتعلم يهود أنَّ في ديننا فسحة، إني أُرسلت بحنيفية سمحة»، وقال مخرِّجوه: حديث قوي وهذا سند حسن، عن عائشة.

وقد وسَّع الله سبحانه وتعالى على عباده غاية التوسعة في دينه، ورزقه، وعفوه، ومغفرته، وبسط عليهم التوبة ما دام الروح في الجسد، وفتح لهم بابًا لها لا يغلقه عنهم إلى أن تطلع الشمس من مغربها، وجعل لكل سيئة كفارة تكفرها من توبة، أو صدقة، أو حسنة ماحية، أو مصيبة مُكفِّرة، وجعل بكل ما حرَّم عليهم عوضا من الحلال أنفع لهم منه، وأطيب، وألذَّ، فيقوم مقامه ليستغني العبد عن الحرام، ويَسَعه الحلال، فلا يضيق عنه، وجعل لكل عُسر يمتحنهم به يُسْرًا قبله، ويُسْرًا بعده، «فلن يغلب عُسْرٌ يسرين»[1]، فإذا كان هذا شأنه سبحانه مع عباده، فكيف يكلِّفهم ما لا يَسَعهم؛ فضلاً عمَّا لا يطيقونه ولا يقدرون عليه)[2].

مراتب الجهاد كما شرحها ابن القيم:

ثم يوضح الإمام ابن القيم ببيانه المشرق، الموثق بأدلة الشرع: مراتب الجهاد، التي أوصلها إلى ثلاث عشرة مرتبة، فيقول رحمه الله:

(إذا عُرِف هذا، فالجهاد أربع مراتب: جهاد النفس، وجهاد الشيطان، وجهاد الكفار، وجهاد المنافقين.

١- جهاد النفس أربع مراتب:

إحداها: أن يجاهدها على تعلُّم الهدى، ودين الحق الذي لا فلاح لها، ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به، ومتى فاتها علمه، شقيت في الدارين.

الثانية: أن يجاهدها على العمل به بعد علمه، وإلا فمجرَّد العلم بلا عمل إن لم يضرَّها لم ينفعها.

الثالثة: أن يجاهدها على الدعوة إليه، وتعليمه مَن لا يعلمه، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبيانات، ولا ينفعه علمه، ولا ينجِّيه من عذاب الله.

---

(١) رواه مالك في الجهاد (٩٦١)، وابن أبي شيبة في البعوث والسرايا (٣٤٥٣٢)، والحاكم في التفسير (٢/ ٥٢٨)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، عن عمر موقوفا، ورواه الحاكم مرفوعا في التفسير (٢/ ٥٧٥)، والبيهقي في الشعب باب الصبر على المصائب (٧/ ٢٠٥)، عن الحسن مرسلا، وضعف الألباني رواية الحسن في ضعيف الجامع (٤٧٨٤).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٨، ٩).

الرابعة: أن يجاهدها على الصبر على مشاقِّ الدعوة إلى الله، وأذى الخلق، ويتحمَّل ذلك كله لله.

فإذا استكمل هذه المراتب الأربع، صار من الربانيين، فإن السلف مجمعون على أنَّ العالم لا يستحقُّ أن يُسمَّى (ربَّانيًّا) حتى يعرف الحق، ويعمل به، ويعلمه، فمَن علم وعمل وعلَّم، فذاك يُدعى عظيمًا في ملكوت السماوات.

٢- جهاد الشيطان مرتبتان:

وأما جهاد الشيطان، فمرتبتان:

إحداهما: جهاده على دفع ما يُلقي إلى العبد من الشبهات والشكوك القادحة في الإيمان.

الثانية: جهاده على دفع ما يُلقي إليه من الإرادات الفاسدة والشهوات.

فالجهاد الأول: يكون بعُدَّة اليقين، والثاني: يكون بعُدَّة الصبر. قال تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**﴾ [السجدة: ٢٤]. فأخبر أنَّ إمامة الدين، إنما تُنال بالصبر واليقين، فالصبر يدفع الشهوات والإرادات الفاسدة، واليقين يدفع الشكوك والشبهات.

٣- جهاد الكفار والمنافقين أربع مراتب:

وأما جهاد الكفار والمنافقين، فأربع مراتب: بالقلب، واللسان، والمال، والنفس، وجهاد الكفار أخصُّ باليد، وجهاد المنافقين أخصُّ باللسان.

٤- جهاد الظلمة والفسّاق ثلاث مراتب:

وأما جهاد أرباب الظلم، والبدع، والمنكرات، فثلاث مراتب: الأولى: باليد إذا قدر، فإن عجز، انتقل إلى اللسان، فإن عجز، جاهد بقلبه، فهذه ثلاثة عشر مرتبة من الجهاد، و«مَن مات ولم يَغْزُ، ولم يحدِّث نفسه بالغزو، مات على شعبة من النفاق»[1].

لا جهاد إلا بهجرة وإيمان:

ولا يتمُّ الجهاد إلا بالهجرة، ولا الهجرة والجهاد إلا بالإيمان، والرَّاجون رحمة الله هم الذين قاموا بهذه الثلاثة. قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ**

(١) رواه مسلم وأحمد وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة، وقد سبق تخريجه صـ٨٣.

﴿هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

وكما أن الإيمان فرض على كلِّ أحد، ففرض عليه هجرتان في كل وقت: هجرة إلى الله عزَّ وجلَّ بالتوحيد، والإخلاص، والإنابة، والتوكل، والخوف، والرجاء، والمحبة، والتوبة. وهجرة إلى رسوله بالمتابعة، والانقياد لأمره، والتصديق بخبره، وتقديم أمره وخبره على أمر غيره وخبره.

«فمَن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومَن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»[1]. وفرض عليه جهادُ نفسه في ذات الله، وجهاد شيطانه، فهذا كله فرض عين لا ينوب فيه أحد عن أحد.

وأما جهاد الكفار والمنافقين، فقد يُكتفى فيه ببعض الأمة إذا حصل منهم مقصود الجهاد)[2] انتهى.

***

(١) متفق عليه عن عمر، وقد سبق تخريجه صـ١٢٢.

(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٥- ١٢) طبعة الرسالة بتحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط.

obeikandl.com

الفصل الثاني

مرتبة جهاد النفس

أول مراتب الجهاد:

أول مراتب الجهاد التي ذكرها الإمام ابن القيم وغيره: جهاد النفس.

والمقصود بجهادها: بذل الجهد لحملها على الالتزام بمنهج الله تعالى، والسير على صراطه المستقيم، وهو يتضمَّن طاعة الله تعالى وعبادته، والبعد عن معصيته، بأداء المسلم واجبه نحو ربِّه، وواجبه نحو نفسه وأسرته، وواجبه نحو أمَّته الكبرى، وواجبه نحو الإنسانية جميعا، وواجبه نحو الكون والمخلوقات جميعا.

ولا شكَّ أن الالتزام بذلك ثقيل على النفس، فهي كما وصفها الله تعالى على لسان امرأة العزيز[1]: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف: ٥٣].

وقال تعالى في شأن الصلاة: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقال في شأن المال: ﴿وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨]، كما يصف الإنسان بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢]، ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾ [الإسراء: ١١].

فالنفس إذا تُركت لهواها وغرائزها، دون حاجز من إيمان، أو رادع من عقل أو ضمير، حادت بالإنسان عن سواء السبيل، فتكاسلت عن أداء الواجبات، وفعل الخيرات، وأسرعت إلى اتِّباع الشهوات، واقتراف السيئات.

الخلق ثلاثة أنواع:

ذلك أن الله تعالى خلق الخلق على ثلاثة أنواع:

١- نوع له عقل وليس له غرائز وشهوات، وهم الملائكة، وهؤلاء مفطورون على الطاعة، معصومون من المعصية: ﴿لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ

(١) زعم بعض المفسرين: أن هذه الجملة من كلام سيدنا يوسف، ولكن سياق الآيات يردُّ بوضوح هذا الزعم، فقد انقطع كلام يوسف من قبل. وقد ألَّف ابن تيمية رسالة يرد فيها قول من ادَّعى أن الكلام هنا ليوسف عليه السلام.

﴿مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

٢- ونوع ليس له عقل، وإنما تُسيِّره الغرائز وحدها، وهذا يتمثل في الأنعام والبهائم والحيوانات. وهذه لا تُؤمر ولا تُنهى ولا يجري عليها تكليف.

٣- وصنف لهم عقول، ولهم غرائز وشهوات، وهؤلاء هم البشر، فهم صالحون لأن ترتقيَ بهم عقولهم حتى يبلغوا درجة الملائكة، وربما فضلوهم، وأن تهبط بهم غرائزهم حتى يصلوا إلى دَرَك الأنعام أو أضل سبيلا.

ذلك أن الإنسان - كما رأينا في خلق آدم أبي البشر - مُكوَّن من عنصرين: عنصر أرضيٌّ، وعنصر سماويٌّ، أو عنصر طينيٌّ، وعنصر رُوحيٌّ. والعنصر الأول يتمثَّل في التراب أو الطين أو الحمأ المسنون الذي خُلق منه جسم الإنسان. والعنصر الآخر يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩].

والطينُ يَجْذب الإنسان إلى أسفل، إلى الأرض، والرُّوح تنزع بالإنسان إلى أعلى، إلى ملكوتِ السماء، إلى اللهِ جلَّ جلاله.

فإذا ترك الإنسان نفسه تنزع إلى الطين، نزل إلى حضيض البهائم.

وإذا راضَ نفسه وزكَّاها، ارتفعت به إلى أفق الملائكة.

ضرورة جهاد النفس حتى تتزكَّى:

ومن هنا كان على الإنسان أن يبذل جهده ليرقى بنفسه ويُزكِّيها، ولا يهملها فيدسِّيها، وهي قابلة لهذا وذاك، فهي مستعدَّة للفجور استعدادها للتقوى. وإنما ترتقي إلى التقوى بالرياضة والمجاهدة والتزكية، كما قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧ - ١٠].

وكلمة (تزكية) مشتقة من كلمة (زَكَا) ومعناها لغة: طهر ونما. فهي تتضمن عنصرين: الطهارة والنماء. وتزكية النفس تعني: تطهيرها من عقائد الشرك، ورذائل النفاق، وصفات الأشرار، وتنميتها بعقائد التوحيد، وفضائل المؤمنين، وخصال الأخيار. وهو ما يعبِّر عنه أهل السلوك بـ(التخلية)

و(التحلية)، أي: التخلية من الباطل في الاعتقاد، والكذب في الأقوال، والسوء في الأفعال، والتحلية بالحق في الاعتقاد، والصدق في الأقوال، والخير في الأفعال.

وهذا كله يحتاج إلى مجاهدة، والمجاهدة إذا كانت في ذات الله ومن أجل ابتغاء مرضاته: فهي لا بد موصلة إلى ثمرتها، وفق سنن الله سبحانه، وهي الهداية الربانية، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ومعنى ﴿جَاهَدُوا فِينَا﴾: أي في ذاتنا، وفي سبيلنا، وابتغاء مرضاتنا.

النفس الأمّارة وراء كثير من أعمال السوء:

ولقد ذكر لنا القرآن الكريم: أن نفس الإنسان قد تُسوِّل له ارتكاب مخالفات خطيرة قد تنتهي إلى الموبقات، ومنها قتل النفس بغير حق. حتى إن أول جريمة قتل وقعت في تاريخ البشرية كانت بتسويل نفس الإنسان الأمّارة بالسوء.

وتلك نفس ابن آدم الأول الذي قتل أخاه الطيب بغير ذنب جناه، والذي قال له: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾، ومع هذا لم تزجره هذه الموعظة البليغة، وأصر على ارتكاب جريمته البشعة: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢٨-٣٠].

لم يكن هناك مجتمع، حتى يقول الاجتماعيون في عصرنا: إنه ضحية المجتمع. إنه ضحية هواه ونفسه الأمّارة بالسوء، هو الذي طوّعت له نفسه قتل أخيه، وكان بذلك أول مَن سنَّ القتل لمَن بعده. ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «إنه ما من نفس تُقتل ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كِفْل منها»[1]، ذلك: أن مَن سنَّ سنَّة سيئة: كان عليه وزرها ووزر مَن عمل بها إلى يوم القيامة.

كما ذكر لنا القرآن أن سيدنا يعقوب قال لبنيه، وقد ألقَوا أخاهم يوسف في الجُبِّ، ثم جاءوا أباهم عشاء يبكون، وادعَوا أن الذئب أكله، وجاؤوا على قميصه

(١) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٣٥)، ومسلم في القسامة والمحاربون (١٦٧٧)، كما رواه الترمذي في العلم (٢٦٧٣)، والنسائي في تحريم الدم (٣٩٨٥)، وابن ماجه في الديات (٢٦١٦)، عن ابن مسعود.

بدم كذب، قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

وكذلك قال لهم حين ضمَّ يوسف إليه أخاه بحيلته التي دبَّرها، وعادوا إلى أبيهم بدونه، وقالوا له ما قالوا معتذرين: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣].

فأعاد سوء عملهم إلى تسويل أنفسهم، التي أمرتهم بالسوء، وكانوا في هذه المرَّة مظلومين، ولكن نبيَّ الله يعقوب لا يعلم من الغيب إلا ما أعلمه الله سبحانه.

وكذلك ذكر لنا القرآن في قصة السامريّ الذي أضلَّ بني إسرائيل حين صنع لهم العجل الذهبي، وقال: هذا إلهكم وإله موسى، وصدَّقه القوم وعبدوه، وهو ﴿لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً﴾ [الأعراف: ١٤٨]. ولما رجع موسى، ورأى ما رأى ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ [طه: ٩٥، ٩٦]، فنفسه هي التي سوَّلت له هذا العمل الكُفري الخبيث، الذي أضلَّ به أمَّةً مُوحِّدة، فجعلها تعبد الأوثان.

إنها النفس البشريَّة، إذا لم تُؤْخذ بالرياضة والتربية والمراقبة والمحاسبة: أخلدت إلى الأرض، واتَّبعت هواها، واقترفت كبائر الإثم والفواحش ما ظهر منها وما بطن.

وقد يقع بعض أهل العلم في هذا الدَّرَك إذا اتَّبع هوى نفسه، فلم ينتفع بعلمه، بل كان حُجَّة عليه. كما حكى القرآن عن الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها، وسار في ركب الشيطان، كما قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

المجاهد مَن جاهد نفسه في طاعة الله:

ولا غرو أن شرع لنا الإسلام أن نجاهد أنفسنا ونروِّضها على تقوى الله والإحسان للناس، كما روى الإمام أحمد في مسنده، عن فَضَالَة بن عُبيد قال:

قال رسول الله ﷺ في حَجَّة الوداع: «ألا أخبركم بالمؤمن؟ مَن أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم. والمسلم: مَن سلِم الناس من لسانه ويده. والمجاهد: مَن جاهد نفسه في طاعة الله. والمهاجر: مَن هجر الخطايا والذنوب»[1].

فهو في هذا الحديث يعطي تعريفات لهذه المفاهيم غير التعريفات الرسمية المعروفة، منبِّهًا على معان فيها يغفل الناس عنها، ولا يلتفتون إليها، مع أهميتها وقيمتها في دين الله، فأهم ما يتميَّز به الإيمان: أن يكون مصدر أمان للناس، بحيث يأمن الناس صاحبه على أموالهم وأنفسهم. وأهم ما يتميَّز به الإسلام: أن يكون منبع سلام للمسلم ولمَن حوله، فيسلم الناس من لسانه ويده، فلا يناله منهم أذى بإحدى الجارحتين. وأهم ما يتميَّز به الجهاد: أن يُجاهد الإنسان نفسه، ولا يكتفي بمجاهدة عدوِّه الخارجي، مُهملاً نفسه التي بين جَنْبيه. وأهم ما تتميَّز به الهجرة: هجرة الخطايا والذنوب، لا مُجرَّد هجرة الديار.

والحديث أيضًا رواه الترمذي، عن فَضَالَة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المجاهد مَن جاهد نفسه». قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

ورواه ابن حِبان في صحيحه بلفظ: «المجاهد مَن جاهد نفسه في الله»[2]، وهذه إضافة مهمة، فإن الجهاد كله لا يُعتبَر، وليس له وزن عند الله، إلا إذا كان في الله، كما قال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج: ٧٨].

ومعنى: أنه في الله، أي: في سبيله وابتغاء مرضاته، وطلب مثوبته، فلا يعتبر جهادًا من راضَ نفسه، ليكون مثل فقراء الهنود، أو فلاسفة الرواقيين، أو رهبان النصارى، أو ليبيِّن للناس مقدار صبره ومدى طاقته النفسية، أو غير ذلك، ما لم

(١) رواه أحمد عن فَضَالة بن عبيد، وقد سبق تخريجه صـ٦٦.

(٢) رواه ابن حبان في السير (٤٦٢٤)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح، والطبراني في الكبير (١٨/ ٣٠٩)، عن فَضَالَة بن عُبيد، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٦٧٩).

يكن جهده وجهاده لله وحده، كما قال الله تعالى لرسوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

ولهذا أوصى المربُّون على اختلاف العصور برياضة النفس، كما يراضُ البدن، ليقوى ويصحَّ، ويقدر على سرعة الحركة، وتحمُّل الخشونة والمعاناة.

بل رياضة النفس أهم من رياضة البدن. يقول أبو الفتح البُستي في نونيته:

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته ... أتطلب الربِّح مما فيه خسران؟
أقبل على النفس واستكمل فضائلها ... فأنت بالنفس -لا بالجسم- إنسان!

ويقول البوصيري في بردته:

والنفسُ كالطفل إن تُهمله شبَّ على ... حُبِّ الرَّضاع، وإن تفطمه ينفطمِ
فاصرف هواها وحاذر أن تولِّيه ... إن الهوى ما تولَّى يُصْم أو يَصمِ

معنى: يُصْم: يقتل. ومعنى: يَصِم: يعِبْ. فاتِّباع الهوى إما يهلكك وإما يشينك.

يصف الإمام الغزالي هذه النفس، فيقول: إنها في حالة الشهوة بهيمة، وفي حال الغضب سَبُع، وفي حال المصيبة تراها طفلاً صغيرًا، وفي حال النعمة تراها فرعونًا، وفي حال الجوع تراها مجنونًا، وفي حال الشِّبَع تراها مختالاً! إن أشبعتها بطِرت وفرحت، وإن جوَّعتها صاحت وجزِعت، فهي كما قال الأول:

كحمار السُّوء إن أشْبَعْتَهُ ... رَمَح النَّاس[1] وإن جاع نَهَق[2]!

ولهذا حذَّر القرآن الكريم من اتِّباع هوى النفس، كما قال تعالى لداود: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

---

(١) رَمَح الناس: أي رفسهم برجله.

(٢) انظر: منهاج العابدين للغزالي صـ ١٧٩، ١٨٠ تحقيق د. محمود مصطفي حلاوي. نشر مؤسسة الرسالة. بيروت، والبيت لصالح بن عبد القدوس. انظر: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء لابن حبان صـ١٢٢ طبعة دار الكتب العلمية ببيروت.

وقال في ذمِّ المنافقين: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦].

وقال لرسوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وجعل اتباع الهوى ضربًا من الشرك، إذا اتخذ المرء إلهه هواه، كما قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣، ٤٤].

وفي سورة أخرى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣]

ولهذا قال ابن عباس: شرُّ إلهٍ عُبِدَ في الأرض الهوى.

وعلى المؤمن أن يُجرِّد نفسه من اتباع الهوى أو (عبادة الذات)، حتى يَخلُص عبدا لله وحده لا لشيء غيره، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وكلُّ تحرير يلزم أن يسبقه جهادٌ من نوعه، فمَنْ لم يجاهد لم يتحرَّر.

صعوبة جهاد النفس:

وقد بيَّن الإمام الغزالي صعوبة جهاد النفس الأمَّارة بالسوء، المعادية لسعادة الإنسان، من وجهين[1]:

(الأول): أنها عدو من الداخل. واللص إذا كان من داخل الدار كان الاحتراس منه أصعب. وفي هذا يقول الشاعر الصالح:

نفسي إلى ما ضرني داعي ... تَهيج آلامي وأوجاعي

كيف احتيالي من عدوي ... إذا كان عدوي بين أضلاعي[2]؟!

(١) انظر: منهاج العابدين للغزالي صـ ١٧٩، ١٨٠.

(٢) البيتان لعباس بن الأحنف.

الثاني: أنها عـدو محبوب. وإذا كان المرء يحبُّ عدوه، فكيف يقـاومه؟! يقول الغزالي: والإنسان عَمٍ عن عيب محبوبه، لا يكاد يبصر عيبه، كما قال القائل:

ولستَ ترى عـيبا لذي الودِّ والإخَـا ولا بعضَ مـا فـيـه إذا كنتَ راضـيـا
وعينُ الرضـا عن كلِّ عـيب كليلةٌ كما أنَّ عينَ السُّخط تُبدي المساويا[1]!

فإذن يسـتحسن الإنسـان من نفسه كل قـبيح، ولا يكاد يطلع على عـيب لها، وهي في عدوانها وإضرارها، فما أوشك ما تـوقعه في كل فضيحة وهلاك، وهـو لا يشعر، إلا أن يحفظه الله تعالى بفضله، ويعينه عليها برحمته)[2].

النفس الأمّارة والنفس اللوامة والنفس المطمئنة:

وإذا وُفِّق المرء في جهاد نفسه: انتقلت من حالة إلى حالة، وارتفعت من درجة إلى درجة.

فـالأصل في النفس: أنها إذا تُـركت لغرائزها وشـهواتـها، ولم تُلجم بلجـام (التقوى): بقيت على طبيعتها (أمَّارة بالسوء) تُسوِّل للإنسان الشرَّ، وتغريه به حتى يقع فيـه، كما قال تعـالى عن ابن آدم الشرير: ﴿**فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [المائدة: ٣٠]. وذلك قبل أن يكون هنـاك مـجتمـع يؤثـر في سلوك الإنسان، إذ كانت هذه أول جريمة تقع في الأرض.

وقال تعالى على لسان امرأة العزيز في قصة يوسف: ﴿**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي**﴾ [يوسف: ٥٣].

وجهـاد النفس هو الذي ينقلها من (النفس الأمَّـارة بالسوء) إلى مـرتبة (النفس اللَّوامة) التي أشـار إليها أو نبَّـه عليها القـرآن بقوله: ﴿**وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ**﴾ [القيامة: ٢].

وهي النفس الحية اليقظة التي لا تسكت عن صاحـبها إذا قصَّر في ترك مأمور، أو وقع في فعل مـحظور، بل هي تحاسبه وتـلومه وتُؤنِّبه، وربما تشتـدُّ في لومه،

(١) البيتان لعبد الله بن معاوية. انـظر: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي صـ٣٢٧، وقال: هو أول من ذكر (عين الرضا) في شعره، وأرسل مثلاً.
(٢) انظر: منهاج العابدين للغزالي صـ ١١٩.

حتى كأنها تلهب ظهره بسوط مؤلم، وهذه عقوبة ذاتية من نفس الإنسان للإنسان. وهو ما يعبرون عنه حديثا باسم (الضمير الحي).

يقول ميمون بن مهران: المؤمن أشد حسابا لنفسه من سلطان غاشم، ومن شريك شحيح[1].

ثم ترتقي هذه النفس، فتنتقل إلى حالة أسمى من حالة (النفس اللوامة)، وهي حالة (النفس المطمئنة)، وهي أعلى مراتب النفس، وهي التي ذكرها القرآن في قوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨].

وإنما اطمأنَّت هذه النفس بالإيمان واليقين، مثل إبراهيم الخليل عليه السلام حين قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

ولقد نقلنا عن ابن القيم هنا أنه ذكر أربع مراتب في جهاد النفس[2]، كلها مهمة وضرورية:

١- جهادها على أن تتعلَّم الهدى ودين الحق، وتتفقَّه في الدين، وتعرف ما لها وما عليها.

٢- ثم جهادها على أن تعمل بما تعلَّمته، وتطبِّقه بأمانة وإحسان: تأتمر بأوامره، وتنتهي عن نواهيه.

٣- ثم جهادها على تعليم غيرها ما تعلَّمته، وتدعوهم إلى الله على بصيرة بالحكمة والموعظة الحسنة، وتحاور المخالفين بالتي هي أحسن.

٤- ثم جهادها على الصبر والمصابرة على مشاقِّ الطريق وما فيه من عقبات وقواطع، وخصوصا لمَن دعا الناس إلى الخير وأمرهم ونهاهم، كما قال لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (٩)، عن ميمون، بلفظ: التقي أشد محاسبة لنفسه من سلطان عاص.

(٢) في كتابه (زاد المعاد) وقد نقلناها من قريب صـ١٥٩.

ومن هنا نعلم: أن من أهم معالم جهاد النفس: أن نُروِّضها على خوض معارك الجهاد الأخرى مع شياطين الجنِّ والإنس، جهاد الظلمة والمفسدين وأصحاب المنكر في الداخل، وجهاد الكفار المعتدين على حُرمات المسلمين -على دينهم أو على بلدانهم - في الخارج. فهذا من أعظم ما تتقاعس عنه الأنفس، وتَتَعلَّل بشتَّى الأعذار، بُغيةَ السلامة، والركون إلى الراحة، كما قال الشاعر:

حُبُّ السَّلامة يُثْني همَّ صَاحبِه ... عن المعالي ويُغْري المرءَ بالكسل

فإنْ جَنَحْتَ إليه فاتَّخذ نفقًا ... في الأرض أو سُلَّمًا في الجو فاعتزل[1]

الرد على من دعا إلى إلغاء موضوع جهاد النفس من كتب الجهاد:

ولقد عجبتُ من قول بعض الإخوة المخلصين من أهل العلم في التعليق على حديث: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»[2]. وهو حديث موضوع أو ضعيف جدا: (وينبغي ألا يضاف في الكتب المخصَّصة لموضوع الجهاد: ما يُسمَّى بـ(الجهاد الأكبر) أو (جهاد النفس) كما فعله المعاصرون، تأثُّرا بهذا الحديث الموضوع)[3].

فأما تسميته (الجهاد الأكبر)، فأنا معهم في رفض هذا العنوان، لأنه مكذوب مُفْترًى على الإسلام. وأما حذف الموضوع بالكلية من كتاب (الجهاد) فليس له من ضرورة، إذا وُضع في موضعه، وأخذ حجمه المناسب بلا وكس ولا شطط، كما يبحث موضوع الجهاد باللسان، والجهاد بالمال، وجهاد الظلم والفساد، وكلها أنواع من الجهاد، ولسنا نحن الذين سمَّيناها جهادًا، فهي إما من تسمية القرآن العزيز أو من تسمية السنة المشرَّفة.

---

(١) البيتان للطغرائي في لاميته الشهيرة. انظر: خزانة الأدب لابن حجة الحموي (١/ ١٨٧) طبعة مكتبة الهلال ببيروت.

(٢) قال العراقي في تخريج الإحياء: أخرجه البيهقي في الزهد من حديث جابر، وقال: هذا إسناد فيه ضعف (٣/ ٢)، وقال الحافظ ابن حجر في (تسديد القوس): هو مشهور على الألسنة وهو من كلام إبراهيم ابن أبي عبلة (كشف الخفا: ٢/ ٣٤٥)، وروى الخطيب في تاريخ بغداد (١٣/ ٥٢٣)، عن جابر قال: قدم النبي صلى الله عليه وسلم، من غزاة له فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قدمتم خير مقدم، وقدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر». قالوا: وما الجهاد الأكبر، يا رسول الله؟ قال: «مجاهدة العبد هواه»، وأنكره الألباني في السلسلة الضعيفة، وضعف سند الخطيب (٢٤٦٠)، وانظر: صـ ٥٣٥ من هذا الكتاب.

(٣) من مقدمة الباحثين: د. إدريس محمد علي، ود. محمد خالد اسطنبولي لتحقيق كتاب (مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق) في فضل الجهاد لابن النحاس (١/ ٣٣) طبعة دار البشائر الإسلامية بيروت.

إنَّ ردنا على الباطل لا يجوز أن يكون بحذف شيء من الحق، مخافة أن يُتخذ ذريعة إلى الباطل.

هب أن أبا نواس قال في شعره دفاعًا عن الخمر:

ما قال ربك: وَيْلٌ للألي سكروا بل قال ربك: ويلٌ للمصلينا!

فهل نحذف آية: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ [الماعون: ٤]، لأنَّ شاعرًا ماجنًا استشهد بها في غير مكانها، وحرَّف الكلم عن مواضعه؟

إنَّ (جهاد النفس) مرتبة مهمة من مراتب الجهاد في سبيل الله كما شرعه الإسلام، يجب أن تُوضع في مكانها، ولا تُهمل بإطلاق، كما لا تأخذ أكثر من حقها، وتجور على أنواع الجهاد الأخرى[1].

***

(١) سنعود إلى مناقشة هذا الحديث: «رجعنا من الجهاد الأصغر . . .» بتفصيل وتوسع في الباب الخامس من هذا الكتاب، الفصل الثالث: (خطر القعود عن الجهاد).

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثالث

مرتبة جهاد الشيطان

ومن مراتب الجهاد التي ذكرها الإمام ابن القيم: جهاد الشيطان، الذي سلَّطه الله على الإنسان، ابتلاءً له واختبارًا لصدق عبوديته لربه، ليَصْقُله بهذا الابتلاء في الدنيا، ويُعدَّه للخلود الأبدي في الأخرى.

الشيطان جزء من العالم غير المنظور:

والشيطان نوع من خلق الله، ولكنه جزء من العالم غير المنظور الذي لا نبصره، كما قال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨، ٣٩]، ففي عالمنا هذا: ما نراه بأعيننا، وندركه بحواسنا، وفيه: ما لا نراه ولا نبصره، ومنه بعض العالم المادي الذي نعيش فيه. فنحن لا ندرك كل أجزاء عالمنا المادي، بل قالوا: إن (٩٧٪) من هذا الكون لا ندركها، وهي التي يسمُّونها (الأعماق السوداء).

وهناك في عالمنا هذا: أشياء غير مادية في تكوينها، ولا يجري عليها ما يجري على المادة، من سُنن وقوانين.

منها: **الملائكة**، وهم جند الله، المخلوقون من نور، المفطورون على عبادته وطاعته، ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧].

ومنها: **الجنُّ**، وهم خلق مكلَّفون مثلنا بعبادة الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ولكنهم يروننا ولا نراهم، ولهم من الإمكانات ما ليس لنا، كما أن عندنا من القدرات ما ليس عندهم. ولذلك سخَّر سليمان الجنَّ لخدمته، ولم نعلم أنَّ جنيًّا سخَّر الإنسان ليخدُمه.

ومن الجنِّ مؤمنون وكافرون، وأخيار وأشرار، وصالحون وطالحون، كما ذكر لنا القرآن في سورة الجنِّ: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٤، ١٥].

وشرُّهم (الشياطين) وهم مَرَدَة الجن، وشيخهم ورئيسهم إبليس الذي لعنه الله، وطرده بعد عصيانه لربه، ورفضه لأمره.

وعدم رؤيتنا لهؤلاء المخلوقين المستورين من الملائكة والجنِّ: لا ينفي وجودهم، فكم من أشياء كانت موجودة، ولها تأثيرها الكبير في حياتنا، ولم نكن نراها، مثل الجراثيم والفيروسات، لأننا لم نكن نملك القدرة على رؤيتها، حتى علَّم الله الإنسان ما لم يعلم، وآتاه من الوسائل والآلات: ما قدر به على أن يكتشف هذه الموجودات، ويشاهدها بعينه، بواسطة الأجهزة المكبِّرة. ولم يكن يعلم الإنسان: أن (نطفة) الرجل، تحوي مئات الملايين من (الحيوانات المنوية).

فلا ينبغي للإنسان أن يسارع بإنكار وجود الشيطان، ويقول: شيء لا أراه كيف أؤمن به؟ فإن هذا خطر على العقيدة التي تقوم أول ما تقوم على الإيمان بالغيب، ومنه - بل أوله - الإيمان بالله جلَّ وعلا، الذي: ﴿**لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ**﴾ [الأنعام: ١٠٣].

إنَّ هذه القوة الخفية نحسُّ بآثارها، وإن لم نكن نراها.

سلَّط الله الشيطان على الإنسان ليوسوس له في صدره، ويُزيِّن له المعصية، ويغريه بالقعود عن الخير، واتباع الهوى، ويضلَّه عن سبيل الله.

المعركة بين الشيطان والإنسان:

بدأت هذه المعركة بين الشيطان والإنسان، منذ أن خلق الله آدم بيده، ونفخ فيه من رُوحه، وأسكنه جنَّته، وأمر ملائكته أن تسجد تكريمًا له، فسجدوا كلهم أجمعون، ﴿**إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ**﴾ [البقرة: ٣٤].

استكبر إبليس على أمر الله، وأبى أن يسجد كما أمر الله، تمرُّدًا على ربه، وغرورًا بنفسه، وحسدًا لآدم على ما آتاه الله من فضله ونعَمه، ووقف موقف التحدِّي من خالقه، فقال له: ﴿**قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (٧٦) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٨٠) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**﴾ [ص: ٧٥- ٨٣].

ومن ذلك اليوم، وقد توَّعد إبليس وأقسم بعزَّة الله أن يقف لبني آدم بالمرصاد، ويغويَهم أجمعين. وكما فصل ذلك في مـقام آخر، كما حكى الله عنه في قوله: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

أقسم اللعين أن يأتيهم من كل الجهات ليغـويهم، ليُرغِّبهم في الدنيا، ويزهِّدهم أو يشكِّكهم في الآخرة، ويُثَبِّطهم عن الحسنات، ويُغْريهم بالسيـئات، حتى يضلَّ أكثرهم عن سبيل الله.

ويعينه على الإنسان: هوى نفسه التي بين جَنْبيـه، فهي مع الشيطان عليه. كما يعينه من بني آدم جند آخرون ممَّن اتبعوه ومشَوا في ركبه، فتشيطنوا مثله، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

ومن شـيـاطين الإنس هؤلاء مَن يرتقي في الشـر والغي، حـتى يفـوق بعض شياطين الجن، كما قال بعضهم:

وكنت امـرءا من جند إبليس، فـارتقى بي الحال حـتى صار إبليس من جندي[1]!

وقال بعض السلف: إنَّ شيطان الإنس أشـدُّ عليَّ من شياطين الجنِّ، إن شيطان الجنِّ إذا ذكرتُ الله تعالى خنس وهرب، وهذا يأتي حتى يأخذ برقبتي[2]!

يعمل إبلـيس وجنده، ليل نهار، في إغـواء بني الإنسـان، لا يأخـذون راحة ولا إجازة، حتى سُئل الحسن البصري يومًـا: يا أبا سعيد! هل ينام الشيطان؟ فقال لو نام لاسترحنا[3]!

تحذير القرآن من الشيطان وعداوته لنا:

لقد حذَّرنا القرآن من الشيطان وعداوته لنا، وكيده لنا، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

---

(١) البيت نسب للشاعر الخبز أرزي.

(٢) قول مالك بن دينار، انظر: تفسير الطبرى (١٢/ ٧٥٢)، وتفسير البغوي (١/ ١٧٩).

(٣) إحياء علوم الدين (٣/ ٣١) دار المعرفة بيروت.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٨، ١٦٩]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

وذكر لنا القرآن بعض هذه الخُطوات التي يتَّبعها الشيطان مثل ما يتَّبعه في التثبيط عن الصدقات والإنفاق في سبيل الله: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

خطوات الشيطان في التزيين والإغواء:

وذكر لنا القرآن أيضا بعض الخُطوات التفصيلية التي يتَّبعها الشيطان في الإغواء والإغراء والتزيين في الأرض، مثل ما ذكر تعالى في سورة النساء، حين قال: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا (١١٧) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (١١٨) وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ [النساء: ١١٧-١٢٠].

وفي سورة الإسراء ذكر القرآن ما قاله إبليس اللعين لربه: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً (٦٢) قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا (٦٣) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٢-٦٤].

فهذه طرائق الشيطان: الإضلال عن الحق، والتمنية (إعطاء الأماني) بالباطل، والأمر بتبتيك وتقطيع آذان الأنعام، وهو يشير إلى تحريم ما أحلَّ الله، على ما كان يفعله العرب في الجاهلية، في تحريم بعض الأنعام بتقطيع آذانها وغير ذلك.

ومن طرقه كذلك: تغيير خلق الله، وأعظم ذلك: تغيير فطرة الله التي فطر الله الناس عليها. ثم التغييرات الجزئية، كما جاء في الحديث: «لعن الله الواصلة

والمستوصلة، والواشمة والمستوشمة»، وفي رواية: «لعن الله الواشمات والمستوشمات، والمتنمِّصات، والمتفلِّجات للحسن، المغيِّرات خلق الله»[1].

وفي مقام آخر قال الشيطان في مخاطبته لرب العزة: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠].

فعمله هنا ضدَّ بني آدم، قد حصره في طريقين رئيسين: التزيين والإغواء.

١- طريق التزيين:

ومعنى التزيين: أن يُحسِّن له الأمر السيئ والقبيح حتى يراه حسنًا، فتلتبس عليه الحقائق بالأباطيل، وتتشوَّش عليه الأمور، كما قال تعالى في بعض الناس: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨].

وقال في بعض الأقوام الهالكة: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [النمل: ٢٤].

﴿وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣].

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ٦٣].

بعض مظاهر التزيين التي يقوم بها الشيطان:

يقول شيخنا البهي الخولي في كتابه (آدم عليه السلام) مُبيِّنًا بعض مظاهر التزيين التي يقوم بها الشيطان في إفساد الإنسان:

(ومن التزيين: ما يتمُّ بفساد تقدير المرء لقِيَم الرجال، وتمييزه لحقائق الناس. بحيث تغدو مقاديرهم عنده مَقِيسة بمظاهرهم من الجاه أو المال أو الزينة. فمَن يملك من ذلك شيئًا فهو الجدير بالتقدمة والرفعة وإن انحط معدنه النفسي، ومن لا حظَّ له منه فلا ميزان له، وإن انطوى على أكبر قسط من عظمة النفس، وسموٍّ

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٨٨٦)، ومسلم في اللباس والزينة (٢١٢٥)، كما رواه أحمد في المسند (٤٣٤٣)، وأبو داود في الترجل (٤١٦٩)، والترمذي في الأدب (٢٧٨٢)، والنسائي في الزينة (٥٠٩٩)، وابن ماجه في النكاح (١٩٨٩)، عن ابن مسعود.

الحقيقة. وقديمًا عجب أهل الطائف أن ينزل الله رسالته على رجل من غير أهل الثراء والرياسة. فردُّوا رسول الله ﷺ، وقالوا في تسويغ ذلك: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

ومن التزيين: ما يُخدع به المرء عن عمله وعقله، فيجري وراء الظنون والأوهام، التي لا تستند إلى أساس، وحسب المرء جهلاً أن ينصرف عن العلم بالله، فما تنفعه فلسفته أو معارفه الدنيوية بعد ذلك شيئًا، فإن العلم بالله هو العلم بالحقِّ، وإذا فات الإنسان أن يجعل الحقَّ أساس علمه، فقُل في جهله وضلاله ما شئتَ: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ [النجم: ٢٩، ٣٠].

وفي عصرنا هذا تروج مذاهب اجتماعية فاسدة، لا تستند إلى فطرة سليمة أو سنة من سُنن الله المقررة، فهي من قبيل ما يفعل في كل عصر شياطين الإنس والجنِّ، إذ يُوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً، بما يلقون من أوهام ويُزيِّنون من ظنون.

تزيين العمل السيئ:

ومن تزيين الشيطان: أن يلقي في صدور أهل المعاصي أنهم أفضل وأقوم من سواهم. وهذا باب يطول استقصاؤه. وما رأينا مدمنًا أو مقامرًا، أو مسرفًا على نفسه بمعصية، أو لصًّا كبيرًا أو صغيرًا، إلا وقد زين له سوء عمله بضروب عجيبة من المسوِّغات: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٢].

ومن التزيين: ما يخيل فيه إلى الجبَّارين والطغاة من أهل الجاه والسلطان، أنهم على الحق، وأن مناوئيهم من المستضعفين على الباطل، وقديمًا قال فرعون لقومه: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٧].

وبعد. فتلك بعض الميادين التي يغشاها الشيطان فيزيِّن للإنسان ما يُبيره ويهلكه، ويفسد له ذوقه العام. فلا يطرب إلا لمتعة الحيوان، ويفسد له رأيه فتروج فيه الظنون والأوهام، ويفسد له تقديره لحقائق الرجال فتروج لديه المظاهر، وتضطرب القِيَم والعلاقات التي تمسك المجتمع، ويزيِّن له سوء عمله فيراه حسنا،

وذلك أسوأ ما يقضي به على إنسان: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾

[الكهف: ١٠٣، ١٠٤][1] اهـ.

٢- طريق الإغواء:

والطريق الثاني الرئيسي للشيطان هو: الإغواء. فما معنى الإغواء؟

الإغواء: مصدر (أَغْوَى) يُغوِي، وفعله الأصلي: غَوَى يَغْوِي، كما قال القرآن عن الرسول محمد: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ [النجم: ٢]، أي: لم يفسد فكره بالضلال، ولم يفسد عمله وسلوكه بالغَيِّ. بل هو مهتدٍ راشد.

وقال ابن الأعرابي: غَوَى الرجل غيًّا: إذا فسد عليه أمره، أو فسد هو في نفسه. قال القرطبي: وهو أحد معاني قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١]، أي فسد عيشه في الجنة[2].

وقال في القاموس: غَوِي الفصيل (من الإبل): بَشِم (أي: أتخم) من اللبن، أو منع من الرضاع، فهزل وكاد يهلك[3].

وما فعله الشيطان مع آدم عليه السلام: أنه زيَّن له الأكل من الشجرة، ودلاَّه بغرور، وقاسمه وزوجه: ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]، وقال له: ﴿يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠].

فما زال به حتى أوقعه في الغَواية، وأفسد عليه أمره وعيشه في الجنة، مُستغلاً ضعف عزم الإنسان ونسيانه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]، ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١].

ولقد عاتب الله - جلَّ جلاله - آدم وزوجه بعد وقوعهما في شَرَك الشيطان: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢) قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٢، ٢٣].

---

(١) انظر: آدم عليه السلام للبهي الخولي صـ١٠٣ - ١٠٨.

(٢) تفسير القرطبي (٧/ ١٧٥).

(٣) القاموس المحيط صـ١٧٠١.

لقد انتصر الشيطان على آدم أبي البشر أول الأمر، ولكن آدم انتصر عليه آخرا بالتوبة النصوح، التي تمحو الذنب كما يمحو الماء أثر الوسخ. كما قال تعالى: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢].

ويقابل الغَيَّ الرُّشد، كما قال تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقال تعالى في المتكبرين في الأرض بغير الحق: ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦].

والرشد رشدان: رشد يتعلق بالأمور المالية والمادية، كما قال تعالى في شأن القاصرين من اليتامى: ﴿فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: ٦].

والرشد الآخر: درجة رفيعة من إدراك البصيرة، يهتدي به المرء إلى حقائق الوجود، وتمييز قِيَم المعنويات، فلا يشتبه عليه حقٌّ بباطل، ولا يلتبس عليه الزيف الرخيص بالقَيِّم النفيس، وهو الذي ذهب موسى عليه السلام - في سفره الطويل الذي لقي منه نصبًا - يُطلبه من العبد الصالح: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦]، وهو الذي امتنَّ به الله تعالى على إبراهيم في قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١].

فقد أدرك بهذا الرشد الرفيع: أن في هذا الوجود ربًّا أكبر من تلك الكائنات الأرضية، وإلهًا أعظم من تلك الكائنات السماوية، فليس هو كوكبًا آفلاً، ولا قمرًا زائلاً، ولا شمسًا غاربة[1].

ولذا أعلن: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

أسلحة المؤمن في محاربة الشيطان:

والقرآن الكريم يضع في أيدينا جملة أسلحة لمحاربة هذا العدو الخبيث (الشيطان):

(١) انظر: آدم عليه السلام للبهي الخولي صـ ١٠٠- ١٠٣.

١- الاستعاذة بالله من شره:

فالشيطان كلب سلَّطه الله على الإنسان: والاستعاذة بصاحب الكلب الشرس، ليدفعه عنك: أمر معروف.

ولهذا قال الله لرسوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧، ٩٨]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦)﴾ [الناس: ١-٦]. والوسواس الخنَّاس هو: الشيطان، فعمله هو الوسوسة في الصدور، أي عمله يتركَّز داخل الأنفس، ولا يتسلَّط على أبدان الناس، كما يزعم كثيرون. وقد قال تعالى على لسان الشيطان يوم القيامة: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨].

كما أمرنا سبحانه وتعالى بالاستعاذة من الشيطان في معاملة الخصوم والجهَّال، ومقابلة سيئتهم بالحسنة، ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٤- ٣٦].

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٩٩، ٢٠٠].

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: (ومعنى (أعوذ بالله): أي أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم: أن يضرني في ديني أو دنياي، أو يصدَّني عن فعل ما أُمرتُ به، أو يحثَّني على فعل ما نُهيتُ عنه، فإن الشيطان لا يكفُّه عن الإنسان إلا الله، ولهذا أمر الله تعالى بمصانعة شيطان الإنس ومداراته بإسداء الجميل إليه، ليردَّه طبعه عما هو فيه من الأذى، وأمرنا بالاستعاذة من شيطان الجنِّ، لأنه لا يقبل رشوة، ولا يؤثر فيه جميل؛ لأنه شرير بالطبع، ولا يكفُّه عنك إلا الذي خلقه[1]!

(١) انظر: تفسير ابن كثير، (١/ ١٥) طبعة الحلبي.

٢- ذكر الله تعالى:

فإنه خنَّاس جبان، إذا ذُكر الله سبحانه خنس واختفى، وإنما يسيطر على حزبه - حزب الشيطان - بإنسائهم ذكر الله تعالى، كما قال عز وجل: ﴿**اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ [المجادلة: ١٩].

فذكر الله تعالى يكون بالقلب، كما يكون باللسان، وأكمله أن يكون بهما معًا.

والذكر نوعان: ذكر ثناء، وذكر دعاء. فذكر الثناء مثل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله. ومثل: ما جاء في الحديث الذي ختم به البخاري جامعه الصحيح: «كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله العظيم، سبحان الله وبحمده»[(١)].

وذكر الدعاء مثل ختام سورة البقرة: ﴿**رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**﴾ [الآية: ٢٨٦].

ومثل أدعية الأنبياء في القرآن: دعاء نوح وإبراهيم ويوسف وموسى وغيرهم، ودعاء المؤمنين الصالحين، وما ورد عن محمد ﷺ، من أدعية أُلِّفت فيها كتب في القديم والحديث[(٢)].

٣- التصميم على معاداته، وعدم مهادنته:

فهو - كما قال تعالى - عدو مبين، لا يتنازل عن عداوته، ولا يَدَعها بحال، ولا يقبل المُسَالَمة أو الصلح أو الهدنة، فالحربُ بينه وبين بني آدم مُستمرَّة إلى يوم القيامة. فلا يُتصوَّر أن يُوالي الإنسان العاقل عدوه، وأن يتَّخذه وليا!

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الدعوات (٦٤٠٦)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦٩٤)، كما رواه أحمد في المسند (٧١٦٧)، والترمذي في الدعوات (٣٤٦٧)، وابن ماجه في الأدب (٣٨٠٦)، عن أبي هريرة.

(٢) مما أُلِّف في الذكر والدعاء: كتاب الأذكار للنووي، والكَلِم الطيب لابن تيمية، والحصن الحصين لابن الجَزَري، وشرحه للشوكاني، ومن أجمل ما كتب في عصرنا: (فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء) للشيخ محمد الغزالي.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٩].

وقال عن إبليس: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

وقال جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

٤- الحذر من دسائسه ومكايده:

وهي كثيرة. بعضها ظاهر بين مثل: الخمر والميسر والنساء، كما قيل: «النساء حبائل الشيطان»[(١)]، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾ [المائدة: ٩١]. وبعضها خفي، لا يفطن إليه إلا أولو البصائر، حتى إنه ليأمر بالخير، ما يريد من ورائه إلا الشر.

وإنما يقاوم المسلم هذه المكايد والدسائس الشيطانية إذا سُلِّح بالأسلحة الربانية، ومنها: سلاح العلم والإيمان، واستحضار رقابة الله تعالى وإحاطته بالخلق، فيصحو القلب، ويستيقظ الضمير، فلا يجد الشيطان فرصة لانتهاز غفلته وسكرته، ليضلَّه عن سواء السبيل. يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١، ٢٠٢]، ومعنى ﴿تَذَكَّرُوا﴾: أي رجعوا إلى نور العلم والإيمان، فتذكروا جلال الله تعالى ورقابته عليهم، ومحاسبته لهم في الآخرة، وجزاءه لهم بما عملوا، فأبصروا الحقيقة، وعرفوا الواجب عليهم، فأقلعوا عن الشر، وأرغموا أنف الشيطان. بخلاف إخوان الشيطان الذين لا يملكون من النور ما يملك هؤلاء، فقد سَدَروا في غلوائهم، واستمروا في غيِّهم يعمهون.

(١) رواه هناد في الزهد (٤٩٧)، وابن أبي شيبة في الزهد (٣٥٦٩٤)، عن ابن مسعود موقوفًا، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٢٠٥٩).

لماذا نحارب الشيطان ولا نهادنه؟

يقول الإمام الغزالي في كتابه (منهاج العابدين) في حديثه عن عقبة (العوائق) في طريق السالك إلى الله تعالى، بعد أن ذكر عائقي الدنيا والخَلق، ثم تحدث عن العائق الثالث: الشيطان. فقال:

(ثم عليك يا أخي بمحاربة الشيطان وقهره، وذلك لخصلتين:

إحداهما: أنه عدوٌّ مضلٌّ مبين، لا مطمع فيه بمصالحة واتقاء غيلة، بل لا يقنعه إلا هلاكك أصلاً، فلا وجه إذن للأمن من مثل هذا العدو والغفلة عنه، وتأمَّل آيتين من كتاب الله تعالى، إحداهما قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ**﴾ [يس: ٦٠]. والثانية قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا**﴾ [فاطر: ٦]. وهذا أقصى التحذير وغايته.

والخَصْلة الثانية: أنه مجبول على عداوتك، ومنتصب أبدًا لمحاربتك، فهو آناء الليل وأطراف النهار يرميك بسهامه، وأنت غافل، فكيف يكون الحال؟

ثم وقعت معك نكتة أخرى، وهي أنك في عبادة الله تعالى، ودعوة الخلق إلى باب الله تعالى بفعلك وقولك، وهذا ضد صنيع الشيطان وهمته، ومراده وحِرفته؛ فصرتَ كأنك قمتَ وشددتَ وسطك، لتغايظ الشيطان وتكايده وتناقضه، فهو أيضًا يشدُّ وسطه ليعاديك ويقاتلك ويماكرك، حتى يفسد عليك والعياذ بالله شأنك، بل حتى يهلكك رأسًا، إذ لا يأمن من جانبك بعد؛ فإنه الذي يسيء ويقصد بالهلاك إلى مَنْ لا يغايظه ولا يناقضه، بل يصادقه ويوافقه، كالكفار وأهل الضلال، وأهل الرغبة في بعض الأحوال؛ فكيف يظنُّ قصده لمَن قام يغايظه، وتجرَّد لمناقضته؟ فله إذن مع سائر الناس عداوة عامة، ومعك أيها المجتهد في العبادة والعلم عداوة خاصة، وإن أمرك له لمهم، ومعه عليك أعوان، أشدُّها عليك نفسك وهواك، وله أسباب ومداخل وأبواب أنت عنها غافل.

ولقد صدق يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله، حيث قال: الشيطان فارغ وأنت مشغول، وهو يراك وأنت لا تراه، وأنت تنساه وهو لا ينساك، ومن نفسك للشيطان عليك عون. فإذن لا بد من محاربته وقهره، وإلا فلا تأمن الفساد والهلاك.

فإن قلت: فبأيِّ شيء أحارب الشيطان؟ وبأي شيء أقهره وأدفعه؟

فاعلم أن لأهل هذه الصناعة[1] في هذه المسألة طريقين:

أحدهما ما قال بعضهم: إن التدبير في دفع الشيطان الاستعاذة بالله لا غير، فإن الشيطان كلب سلَّطه الله تعالى عليك؛ إن اشتغلتَ بمحاربته ومعالجته تعبتَ، وضاع عليك وقتك، وربما يظفر بك فيعقِرك ويجرحك، فإن الرجوع إلى رب الكلب ليصرفه عنك أولى.

والثاني: ما قال آخرون: الطريق المجاهدة، والقيام عليه بالدفع والردِّ والمخالفة.

قلت: والذي عندي أن الطريق العدل الجامع في أمره: أن تجمع بين الطريقين، تستعيذ بالله من شرِّه. أولاً كما أمرنا، وهو الكافي شرَّه؛ ثم إن رأيناه يتغلَّب علينا، علمنا أنه ابتلاء من الله سبحانه وتعالى، ليرى صدق مجاهدتنا وقوتنا في أمره سبحانه وتعالى وصبرنا، كما أنه سلَّط الكفار علينا مع قدرته على كفاية أمرهم وشرِّهم، ليكون لنا حظ من الجهاد والصبر والتمحيص والشهادة، كما قال تعالى: ﴿**وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ**﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وقال تعالى: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ**﴾ [آل عمران: ١٤٢]، فكذلك هذا)[2] انتهى.

مداخل الشيطان إلى قلب الإنسان:

وقد ذكر الإمام الغزالي في (الإحياء) جملة من أبواب الشيطان ومداخله إلى القلب الإنساني، لا يتَّسع المقام لذكرها، ناهيك بتفصيلها. وحسبنا أن نشير إلى بعضها فقط.

فمن أبوابه العظيمة: الغضب والشهوة، ومنها: الحسد والحرص. ومنها: الإسراف في الطعام. ومنها: حبُّ التزين من الأثاث والثياب والدار (أي المبالغة في ذلك). ومنها: الطمع في الناس. ومنها: العجلة وترك التثبت في الأمور. ومنها: البخل وخوف الفقر. ومنها: التعصب للمذاهب والأهواء، والحقد على

---

(١) أي: لأهل التصوف.

(٢) انظر: منهاج العابدين صـ ١٠٨- ١١٠ طبعة مؤسسة الرسالة. بيروت. تحقيق د. محمود مصطفى حلاوى.

الخصوم، والنظر إليهم بعين الازدراء والاستحقار. ومنها: حَمْل العوام على الدخول فيما لا يحسنونه من العلم. ومنها: سوء الظن بالمسلمين. إلى آخره.

ثم قال: (إن أردتَ الخلاص من الشيطان، فقدِّم الاحتماء بالتقوى، ثم أردفه بدواء الذكر، يفر الشيطان منك كما فرَّ من عمر رضي الله عنه. ولذلك قال وهيب بن الورد: لا تسبَّ الشيطان في العلانية، وأنت صديقه في السر[1]! وقال بعضهم: يا عجبا لمَن يعصي المحسن بعد معرفته بإحسانه (يعني: الله سبحانه) ويطيع اللعين بعد معرفته بطغيانه!)[2].

وقد نقلنا عن الإمام ابن القيم في حديثه عن مراتب الجهاد: أنَّ جهاد الشيطان مرتبتان:

(إحداهما: جهاده على دفع ما يلقي إلى المكلَّف من الشبهات والشكوك القادحة في الإيمان.

الثانية: جهاده على دفع ما يلقي إليه من الإرادات والشهوات.

فالجهاد الأول: يكون بعُدَّة اليقين. والثاني: يكون بعُدَّة الصبر. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، فأخبر أن إمامة الدين إنما تُنال بالصبر واليقين. فالصبر يدفع الشهوات والإرادات الفاسدة، واليقين يدفع الشكوك والشبهات)[3] اهـ.

وبهذا نرى: أن الجهاد في الإسلام، يشمل - فيما يشمل - هذا اللون من الجهاد الخفي، لهذا العدو المبين، الذي أعلن عداوته للإنسان منذ خُلق آدم، وأعدَّ نفسه وجنده لمحاربتهم بكل سلاح، فعلى المسلم أن يُعدَّ نفسه لمقاومته، وأن يهيِّئ له من الدروع الواقية، والأسلحة الملائمة: ما يُحْبط كَيْدَه، ويردُّ غائلته، ويُخرجه من المعركة مذؤومًا مدحورًا.

فلا ينبغي إذن حصر الجهاد في الإسلام في القتال وحده، فإنما هو نوع واحد من أنواع الجهاد، وإن كان أشدها وأعظمها خطرًا.

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٨/ ١٥٤)، عن وهيب بن الورد، وقد صُحِّف في (الإحياء) إلى وهب بن منبه، وعزاه القرطبي في تفسيره إلى الفضيل بن عياض (١٤/ ٣٢٤).

(٢) انظر: إحياء علوم الدين (٣/ ٣٢ - ٣٨) طبعة دار المعرفة - بيروت.

(٣) انظر: زاد المعاد (٣/ ١٠) طبعة الرسالة.

الفصل الرابع

مرتبة جهاد الظلم والمنكر في الداخل

ومن مراتب الجهاد الذي جاء به الإسلام: مرتبة جهاد الشرِّ والفساد في الداخل. وهذا الجهاد في غاية الأهمية لحماية المجتمع من الضياع والانهيار والتفكُّك، لأن المجتمع المسلم له أسس ومقوِّمات وخصائص تميِّزه وتشخِّصه، فإذا ضُيِّعت أو نُسيت أو حُوربت هذه الأسس والمقوِّمات لم يبقَ مجتمعًا مسلمًا.

لكل مجتمع مسلم حارسان يحرسانه:

وهناك حارسان لهذا المجتمع يحفظانه ويُمسكانه أن يزول:

هناك أولاً: **حارس الإيمان**، الذي هو الأساس الأول للمجتمع. وهو حارس ذاتي من داخل ضمير كل مسلم.

وهناك ثانيًا: هذا **الحارس الاجتماعي**، الذي يُجسِّد ضمير المجتمع العام، الذي يغار على العقائد أن تُخْدش، وعلى الشعائر أن تُضيَّع، وعلى القِيَم أن تُداس، وعلى الحرمات أن تُنتهك، وعلى الشرائع أن تُعطَّل، وعلى الآداب أن تُهمل.

هذا الحارس ينشئه في المجتمع: أحكام الإسلام وتعاليمه، التي تجعل كل مسلم مسؤولاً عما يحدث في المجتمع من حوله، فلا يعيش المسلم في همِّ نفسه وحدها، بل يحمل همَّ المجتمع من حوله، يُقوِّم ما اعْوجَّ، ويُصلح ما فسد، ويردُّ من شَرَدَ، ويقوِّم مَن ظَلَم، حتى يستقيم المجتمع على أمر الله. فالمؤمن لا يكتفي بإصلاح نفسه، بل يعمل أبدًا على إصلاح غيره، ومقاومة الفساد ما استطاع.

هذا ما تفرضه أوامر الإسلام ونواهيه: من النصيحة في الدين، والدعوة إلى الخير، والتواصي بالحق وبالصبر وبالمَرحمة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومحاربة الطغيان، وتغيير المنكر - إذا وقع - باليد أو باللسان أو بالقلب، وذلك أضعف الإيمان. والأخذ على يد الظالم حتى يرتدع عن ظلمه، ونصرة المظلوم حتى يأخذ حقه.

ميادين الجهاد في داخل المجتمع:

وهذا هو الجهاد الواجب في داخل المجتمع، وهو يشمل جملة ميادين:

١- ميدان مقاومة الظلم والظالمين:

ميدان مقاومة الظلم والظالمين، والأخذ على أيديهم، وعدم الركون إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

والإسلام يطلب هنا من المسلم أمرين أساسيين: أولهما: ألاَّ يظلم. وثانيهما: ألا يكون عونًا لظالم، فإن أعوان الظالم معه في جهنم. ولهذا يَدين القرآن جنود الطغاة كما يَدين الطغاة أنفسهم، كما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ [القصص: ٨] وقال عن فرعون: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٤٠]، فاعتبر الطاغية والجنود جميعًا من الظالمين، ونزلت نقمة الله فشملتهم جميعًا، وأخذتهم جميعًا بما قدمت أيديهم.

وذلك أن الجبار المستكبر في الأرض لا ينفذ ظلمه بنفسه، ولكن بوساطة هذه الآلات البشرية التي يستخدمها في قهر العباد، وإفساد البلاد، وهي تكون له عادة أطوع من الخاتم في أصبعه!

وقد قالوا: إن الإمام أحمد بن حنبل حين سُجن في محنة خلق القرآن الشهيرة، وأصابه من الأذى ما أصابه، سأله يومًا أحد السجَّانين عن الأحاديث التي وردت في أعوان الظلمة وما لهم من العذاب عند الله تعالى؟ فأعلمه أنها أحاديث صحيحة. فقال له: وهل ترى مثلي من أعوان الظلمة؟ فقال له: لا، لستَ من أعوان الظلمة. إنما أعوان الظلمة مَن يخيط لك ثوبك، ومَن يهيئ لك طعامك، ومَن يقضي لك حاجتك. أما أنت فمن الظلمة أنفسهم[1]!!

---

(١) صيد الخاطر صـ ٤٢٩، ونسب مثلها للثوري، الكبائر صـ١٠٤، ومثلها لابن المبارك، إحياء علوم الدين (٢/ ١٣).

وقد جاء في الحديث الصحيح: «انصر أخاك ظالما أو مظلوما»! قالوا: يا رسول الله؛ ننصره مظلوما، فكيف ننصره ظالما؟ فقال: «تحجزه - أو تمنعه - من الظلم، فإن ذلك نصره»(١).

وسواء كان الظلم من الأغنياء للفقراء، أم من الملاَّك للمستأجرين، أم من أرباب العمل للعمال، أم من القادة للجنود، أم من الرؤساء للمرؤوسين، أم من الرجال للنساء، أم من الكبار للصغار، أم من الحكام وأُولي الأمر للرعية والشعوب، فكله حرام ومنكر يجب أن يُقاوَم ويُجاهَد، بما يقدر عليه الإنسان من اليد واللسان والقلب، كما جاء في صحيح مسلم عن ابن مسعود: «ما من نبيٍّ بعثه الله في أمة قبلي، إلا كان له من أمته حواريُّون وأصحاب، يأخذون بسنَّته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خُلُوف، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يُؤمرون، فمَن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومَن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومَن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»(٢).

فأوجب الرسول ﷺ: مجاهدة الظلمة والطغاة على كل مسلم، بما يقدر عليه: من اليد، أو اللسان، أو القلب، وهي المرتبة الأخيرة - التي مَن تركها لم يبقَ معه شيء من الإيمان، وإن قَلَّ - وضرب له مثلاً بحبة الخردل على صغرها. والمطلوب في هذه المرتبة: أن يَكره الظلم والمنكر بقلبه، ويكره مرتكبي الظلم، ومُقْترفي المنكر، وهذه لا يملك أحد أن يمنعه منها، لأن قلب المؤمن لا سلطان لأحد عليه غير ربه الذي خلقه.

ولقد اهتمَّ الإسلام بهذا الجهاد وحثَّ عليه، وجاء في بعض الأحاديث اعتباره أفضل الجهاد، كما روى طارق بن شهاب البَجَلي رضي الله عنه: أن رجلاً سأل النبي ﷺ، وقد وضع رجله في الغَرْز: أي الجهاد أفضل؟ فقال: «كلمة حق عند سلطان جائر»(٣).

---

(١) رواه البخاري عن أنس، وقد سبق تخريجه صـ ١١١.

(٢) رواه مسلم في الإيمان (٥٠)، وأحمد في المسند (٤٣٧٩)، عن ابن مسعود.

(٣) رواه أحمد في المسند (١٨٨٢٨)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح، والنسائي في البيعة (٤٢٠٩)، عن طارق بن شهاب، وصحح المنذري في الترغيب والترهيب إسناد النسائي (٣/١٥٨).

وروى جابر بن عبد الله، عن النبي ﷺ قال: «سيد الشهداء: حمزة ابن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر، فأمره ونهاه فقتله»[1]. وبهذا جرَّأ الرسول الكريم أمته: أن تقول كلمة الحق في وجه السلاطين الظلمة المتجبِّرين، لا يبالون ما يصيبهم في سبيل الله؛ أن يقتلوا في سبيل الله. وهذا أغلى وأعلى ما يتمناه مسلم لنفسه: أن يُختم له بالشهادة في سبيل الله، ولا سيما إذا كان بجوار سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، أسد الله وأسد رسوله.

وتظلُّ الأمة بخير ما دام فيها مَن يصدع بكلمة الحق آمرًا ناهيًا، مهما تكن العاقبة. وتفقد الأمة استحقاقها للبقاء، إذا شاعت فيها روح الاستسلام، وانتشر فيها الوَهْن والجبن، وعدمت مَن يقول: أُمَّتي، أُمَّتي! قبل أن يقول: نفسي، نفسي!

وهذا ما حذَّر منه الحديث الشريف الذي يقول: «إذا رأيتَ أُمَّتي تهاب أن تقول للظالم: يا ظالم، فقد تُودِّع منهم»[2].

ومعنى «تُودِّع منهم»: أي لا خير فيهم، فقد استوى وجودهم وعدمهم، فإن مُبرِّر وجود الأمة: أن تقوم برسالتها، وهي الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإذا لم تقُم بهذه الرسالة فلم تعُد فائدة لبقائها.

---

(١) رواه الحاكم في معرفة الصحابة (٣/ ١٩٥)، وصحَّح إسناده، وتعقبه الذهبي بأن في إسناده الصفار، لا يُدرى: من هو؟، عن جابر، وصحَّحه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٧٤) من طرق رواها الخطيب في تاريخه.

(٢) رواه أحمد في المسند (٦٧٨٦)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف لانقطاعه، والبزار في المسند (٦/ ٣٦٢)، والحاكم في فضائل القرآن (٤/ ٩٦)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، والبيهقي في الكبرى كتاب الغصب (٦/ ٩٥)، عن عبد الله بن عمرو، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أحمد والبزار بإسنادين، ورجال أحد إسنادي البزار رجال الصحيح وكذلك رجال أحمد (٧/ ٥١٨)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١ ٥٠)، وفي إسناده عندهم أبو الزبير، وقد ذكر أبو حاتم في المراسيل صـ١٥٤: أنه لم يسمع من ابن عمرو، ومثله أيضًا عن ابن معين. كما نقل عنه ابن عدي في الكامل: أنه لم يسمع منه ولم يره. ولذا قال الشيخ شعيب وزملاؤه في تخريج المسند: إسناده ضعيف (٦٥٢١). ورد ذلك أحمد شاكر في تخريج المسند، ورجح سماعه من ابن عمرو، وصحح إسناد الحديث ودافع عن تصحيحه دفاعًا بليغًا، فليراجع، وذكره المنذري في (الترغيب والترهيب) واقتصر على نسبته إلى الحاكم، وذكر تصحيحه ولم يتعقبه (٣/ ١٦٣).

وقفة للتأمُّل في سبب تعظيم الرسول ﷺ لهذا الجهاد:

ويَحْسُن بنا أن نقف هنا وقفة للتأمل والمقارنة: لماذا عظَّم الرسول الكريم شأن هذا الجهاد، واعتبره أفضل الجهاد، واعتبر مَن قُتل فيه بجوار سيد الشهداء؟

والجواب: أن خطر الفساد الداخلي إذا تفاقم: يشكل خطرًا جسيمًا وشرًّا كبيرًا على الأمة، ولهذا يعتبر الإسلام الجهاد ضدَّ الظلم والفساد في الداخل مُقدَّمًا على الجهاد ضدَّ الكفر والعدوان من الخارج. فإنَّ الفساد الداخلي كثيرًا ما يكون ممهِّدًا للعدوان الخارجي، كما تدلُّ على ذلك أوائل سورة الإسراء، إذ قصَّت علينا ما وقع لبني إسرائيل حين أفسدوا في الأرض مرتين، وعلَوا (طغَوا) علوًّا كبيرا، ولم يجدوا بينهم مَن ينهى عن هذا الفساد أو يقاومه، فسلَّط الله عليهم أعداء من الخارج، يجوسون خلال ديارهم، ويُدمِّرون عليهم معابدهم، ويحرقون توراتهم، ويسومونهم سوء العذاب، ويُتبِّرون ما علَوا تتبيرًا، وكان وعد الله مفعولاً.

ومن هنا رأينا الفساد والانحلال، مقدمة للغزو والاحتلال[1]، وقد هدَّدهم بمثل هذه العقوبات القدرية إذا وقع منهم مثل ذلك الإفساد في المستقبل، وذلك في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨]، أي: إن عُدتم إلى الطغيان والعلو والإفساد عُدنا عليكم بتسليط الأعداء.

وقد رأينا النبي ﷺ، يعلمنا: أنَّ أفضل الجهاد: كلمة حق عند سلطان جائر». فاعتبر الرسول ﷺ ذلك أفضل الجهاد، لأن المقاتل في الميدان كثيرًا ما يَسلم ويعود بأجر وغنيمة، أما مَن يواجه السلطان الجائر بكلمة الحق، فكثيرًا ما يقدِّم عنقه فداء لكلمته.

وأساس هذه المراتب هو حديث أبي سعيد الخدري[2]، وحديث ابن مسعود، اللذين رواهما مسلم في صحيحه[3].

وجعل ابن القيم هذا النوع من الجهاد ثلاث مراتب: باليد، ثم باللسان، ثم بالقلب، حسب الاستطاعة.

---

(١) انظر: تعليق شيخنا محمد الغزالي على هذه الآيات في كتابه: (الإسلام والأوضاع الاقتصادية) صـ١١٢ - ١١٤ الطبعة السابعة. دار الصحوة. القاهرة ١٩٨٧م. وهو أول مؤلفاته، وانظر كتابنا (الشيخ الغزالي كما عرفته) صـ١٤، ١٥، ١٦ طبعة دار الشروق بالقاهرة.

(٢) سيأتي تخريجه صـ٢٢٠.

(٣) سبق تخريجه صـ١٨٧.

مفهوم الجهاد أو التغيير بالقلب:

والتغيير بالقلب أو الجهاد بالقلب: معناه غليان القلب غضبًا على المنكر، وكراهيةً للظلم، وإنكارًا على الفساد. وحين يمتلئ القلب بهذه (الشحنة) من الغضب والكراهية والإنكار والثورة الداخلية: يكون ذلك تحضيرًا معنويًّا لثورة ظاهرية عارمة، توشك أن تقتلع الظلم والفساد من جذوره، حين يرى المؤمن الظلم يتجبَّر، والفساد يستشري، والمنكر يستعلي، ولا يستطيع تغييره بيد ولا حتى بلسان، فيذوب قلبه كما يذوب الملح في الماء، ويغلي الغيظ في صدره، كما يغلي المِرجَل فوق النار؛ فلا بد لهذا المِرجَل أن يتنفس، وإلا تفجَّر أو تكسَّر! فهذه الشحنة القلبية الوجدانية الانفعالية: رصيدٌ مهم لأيِّ تغيير عملي مُرتقَب، فإن التغيير لا يبدأ عادة من فراغ، بل لا بد له من مقدِّمات ودوافع نفسية، تغري به، وتدفع إليه.

فليس التغيير أو الجهاد بالقلب موقفًا سلبيًّا، كما يفهمه بعض الناس، وإلا ما سمَّاه الرسول تغييرًا أو جهادًا، ولا جعله مرتبة من مراتب الإيمان، وإن كان هو المرتبة الدنيا، التي ليس وراءها من الإيمان حبة خردل.

ولهذا كان جهاد الفساد لازمًا ومفضَّلا على غيره، إنقاذًا للأمة من شروره وآثاره، وإطفاءً للنار قبل أن يتطاير شررها، ويتفاقم خطرها، ويعمَّ ضررها.

وإذا كانت السنة النبوية قد نوَّهت بفضل من قُتِل من أجل فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن القرآن قد ندَّد أبلغ التنديد بالذين يَقتُلون الآمرين بالمعروف، والناهين عن المنكر، من الأنبياء، وورثة الأنبياء، الذين يواجهون أهواء الباطل بكلمة الحق. واعتبر القرآن هذه الجريمة من كبريات الجرائم، التي تستوجب عذاب الله ونقمته في الدنيا والآخرة. كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ**﴾ [آل عمران: ٢١، ٢٢].

وذلك لأن هذه الجريمة تُخرس ألسنة الحق، وتُخلِي الساحة للطغاة والظالمين، يعملون فيها ما تَهوى أنفسهم، وما تُزينه لهم شياطينهم، وإن بلغ في الشر ما بلغ، دون أن يقول لهم أحد: لِمَ؟ بله أن يقول لهم: لا!

ومن هنا كانت عقوبة الله تعالى لبني إسرائيل، إذ كان من جرائمهم التي شاعت فيهم: قتل الأنبياء بغير حق. كما قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

وقال سبحانه: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢].

٢- ميدان مقاومة الفسوق والانحلال:

وهناك ميدان ثانٍ للجهاد الداخلي، ذلك هو ميدان الانحلال والفسوق، واقتراف المعاصي، واتباع الشهوات. وهو انحراف خطير، إذا استسلمت له الأمة ساقها إلى مهاوي الرَّدَى، واختلَّت أمور حياتها كلِّها، وظهر الفساد والاختلال في البر والبحر بسوء أعمالها، واعوجاج سلوكها. كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، والفساد المذكور في الآية ليس المراد به الفساد الديني والخلقي، بل فساد أمر الحياة واضطراب موازينها، واختلال شؤونها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، بظهور الفقر والبطالة والغلاء، وانتشار الأمراض، وتقطُّع الروابط، وغلبة الجَور، واتساع الفوارق بين الناس، حتى تجد كل الناس يشتكون من سوء الحال، وخيبة الآمال.

أما الفساد الديني والخلقي فهو سبب للفساد الدنيوي المذكور في الآية، وهو المعبَّر عنه بقوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ فإن الله لا يعاقب الناس إلا بما عملوا، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ١٨٢، الأنفال: ٥١]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣].

وهو سبحانه لا يعاقب الناس بكل ما عملوا، بل كما قال تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ [الروم: ٤١]، وكما قال عز وجل: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ

أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، ويقول تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ٤٥].

إن اتباع شهوات البطون والفروج، والاستهانة بما حرَّم الله على عباده، واقتراف الفواحش ما ظهر منها وما بطن، من الزنى، الذي حذَّر الله ونهى عن مجرَّد الاقتراب منه، فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، ومن الشذوذ الجنسي؛ الذي عُرف بعمل قوم لوط، الذين أَتَوا هذه الفاحشة ما سبقهم بها من أحد من العالمين، والذين أرسل الله إلى مرتكبيها رسولاً ينهاهم عنها، ويُحذِّرهم من مَغبَّتها، وينذرهم بسوء المصير إن هم أصرُّوا عليها، ومن قوله لهم: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦]، وفي سور أخرى قال لهم: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥]، ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨١]، ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٤]، ﴿رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٠]، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٤]، فوصفهم بالعدوان، والجهل، والإسراف، والإجرام، والإفساد، والفسوق، وأنهم قوم سوء.

ولم يُجْدِ فيهم تحذير أو إنذار، فلقد كانوا في ﴿سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]، كما وصفهم القرآن، وهو تصويرٌ صادق لحال المدمنين على الفاحشة، الذين فقدوا عقولهم وإرادتهم، وأصرُّوا على إباحيتهم وشذوذهم، فكان لا بد للقدر الأعلى أن يُطهِّر الأرض من رجْسهم بعذاب من السماء يُدمِّر قريتهم، ويهلك أشخاصهم: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٢، ٨٣].

إنَّ انتشار فاحشة الزنى والشذوذ - الذي أصبح له دعاة ومُروِّجون جهاراً نهاراً في عصرنا - سبب لنقمة الله تعالى، وعقوبته القَدَرية للمجتمعات المصابة بهذه الأدواء، كما جاء في حديث ابن عمر، عند ابن ماجه والحاكم والبيهقي، وفيه:

«لم تظهر الفاحشة في قوم حتى يعلنوا بها، إلا سلَّط الله عليهم الطاعون، والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضَوا»[1].

وجاء في حديث ابن مسعود: «ما ظهر في قوم الزنى والربا، إلا أحلُّوا بأنفسهم عقاب الله»[2].

ومن ذلك: شرب الخمر أم الخبائث، وشيوع تناول المسكرات والمخدِّرات، التي تفسد عقول أبناء الأمة، كما تفسد أجسامها وعزائمها، وتشيع فيها الأدواء والأمراض، وتضيع المليارات من أموالها في محاربتها ثم في علاجها، وعلاج آثارها السيئة على المجتمع.

إنَّ الفسوق والانحلال جريمة كبيرة مُدمِّرة للمجتمعات إذا لم تقاوَم، ولا سيما في الأمم التي تقوم أساسًا على الدين، والدين يعني: الطهر والاستقامة والعفاف والإحصان.

٣- ميدان مقاومة الابتداع والانحراف الفكري:

وهنا ميدان ثالث ومهم للجهاد الداخلي، وهو ميدان الابتداع في الدين، بأن يحدث فيه ما ليس منه، وأن يزيد عليه ما لا تقبله طبيعته في عقيدته أو شريعته أو أخلاقه، أو تقاليده، أو يدعو إلى مفاهيم تتناقض مع عقائده أو شرائعه أو قِيَمه.

والإسلام - خاصة - شديدُ الحساسية نحو الابتداع والإحداث في الدين، والمناقضة في الفكر. لذا قال رسوله الكريم: «مَن أحدث في أمرنا ما ليس منه، فهو ردٌّ»[3]، ومعنى «في أمرنا»: أي في ديننا. ومعنى «فهو ردٌّ»:

(١) رواه ابن ماجه في الفتن (٤٠١٩)، والطبراني في الأوسط (٤٦٧١)، والحاكم في الفتن (٤/ ٥٤٠)، وصحَّح إسناده، ووافقه الذهبي، والبيهقي في الشعب باب التشديد على مَن منع زكاة ماله (٣٣١٤)، عن ابن عمر، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: روى ابن ماجه بعضه، ورواه البزار ورجاله ثقات (٥/ ٥٧٢)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٧٩٧٨).

(٢) رواه أحمد في المسند (٣٨٠٩)، وقال مُخرِّجوه: صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف لضعف شريك، وأبو يعلى في المسند (٨/ ٣٩٦)، وابن حبان في الحدود (٤٤١٠)، عن ابن مسعود، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أبو يعلى وإسناده جيد (٤/ ٢١٣)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٦٣٤).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الصلح (٢٦٩٧)، ومسلم في الأقضية (١٧١٨)، كما رواه أحمد في المسند (٢٦٠٣٣)، وأبو داود في السنة (٤٦٠٦)، وابن ماجه في المقدمة (١٤)، عن عائشة.

أي مردود عليه. وقال ﷺ: «كلُّ بدعة ضلالة، وكلُّ ضلالة في النار»[1].

ويرى الراسخون في العلم: أنَّ البدع أشد خطرا من المعاصي؛ لأن المعاصي مكشوفة مفضوح أمرها للناس. أما البدع فهي تتستَّر بثوب الدين، وتروج بضاعتها عند الكثيرين على أنها قُرَب إلى الله تعالى، ولا يعرفون حقيقتها. ولذا قالوا: إن المعصية كثيرًا ما نرى أصحابها يندمون عليها، ويتوبون منها ويستغفرون الله تعالى. أما البدعة فإن أصحابها لا يتوبون منها، ولا يستغفرون، لأنهم يتقربون إلى الله بها، فكيف يتوبون منها ويستغفرون؟!

ولهذا قالوا: إنَّ البدعة أحب إلى الشيطان من المعصية. فإن المعصية تفسد الإنسان، ولكن البدعة تفسد الأديان.

البدعة القوليَّة (الاعتقاديَّة والفكريَّة) والبدعة العمليَّة:

والابتداع - كما شرحه العلماء - نوعان:

١- ابتداع بالفعل.

٢- وابتداع بالقول.

وقد حذَّر العلماء من النوعين جميعًا: بدعة الأفعال، وبدعة الأقوال.

وبدعة الأفعال تتعلق بالعمل والسلوك، وبدعة الأقوال تتعلق بالاعتقاد والأفكار.

ولذلك كانت البدعة الاعتقادية والفكرية: أشدَّ خطرًا من البدعة العملية والسلوكية.

فإن الإنسان لا يستقيم سلوكه وعمله إلا إذا استقام اعتقاده وفكره وتصوره. فإذا اعوجَّ هذا الاعتقاد أو الفكر أو التصور: اعوجَّ العمل والسلوك لا محالة. إذ لا يستقيم الظلُّ والعود أعوج!

وهذا النوع من الابتداع والانحراف: هو سبب لكثير من الفتن والصراعات التي حدثت في تاريخنا الإسلامي، وأدَّت إلى حروب ودماء وخراب ودمار، وفرَّقت

(١) رواه مسلم في الجمعة (٨٦٧)، وأحمد في المسند (١٤٣٣٤)، والنسائي في صلاة العيدين (١٥٧٨)، وابن ماجه في المقدمة (٤٥)، عن جابر، ولم يذكر مسلم وأحمد وابن ماجه: «وكل ضلالة في النار».

الأمة الواحدة إلى طوائف وفرق، يُفسِّق بعضها بعضًا؛ بل يُكفِّر بعضها بعضًا، وترتَّب على هذا: أن يقاتل بعضها بعضًا، ويرفع أحدهم السيف في وجه أخيه المسلم؛ مع تحذير النبي ﷺ لهم في حَجَّة الوداع بالقول الصريح، والإنذار المبين: «لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض»(١).

وقوله: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار»(٢).

إن بدعة الخوارج لم تنشأ عن فساد في السلوك أو تقصير في عبادة الله، فقد كانوا صُوَّامًا قُوَّامًا قُرَّاء للقرآن، حتى جاء في الحديث الصحيح: «يحقر أحدكم صلاته إلى صلاتهم، وصيامه إلى صيامهم، وقراءته إلى قراءتهم». ومع هذا وصفهم بأنهم «يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرَّمِيَّة»، وأنهم «يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم»(٣)، أي أنهم يقرؤونه بحناجرهم، لا يجاوزها إلى رؤوسهم، ولا يحسنون فقهه بعقولهم. فآفتهم ليست في فساد القصد، بل في فساد الفَهم، آفتهم ليست في ضمائرهم، بل في عقولهم.

لهذا يقرر الإمام ابن تيمية في أحد المباحث في فتاواه:

(أن أهل البدع شرٌّ من أهل المعاصي الشهوانية بالسنة والإجماع، فإن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بقتال الخوارج، ونهى عن قتال أئمة (أمراء) الظلم، وقال في الذي يشرب الخمر: «لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله»، وقال في ذي الخويصرة: «يخرج من ضئضئ هذا أقوام يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين -وفي رواية: من الإسلام- كما يمرق السهم من الرمية، يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، وقراءته مع قراءتهم، أينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن فى قتلهم أجرًا عند الله لمن قتلهم يوم القيامة)(٤).

وهذا الاعوجاج في الفَهم أدَّى إلى الخروج على الأمة، واستباحة دمائها، حتى استباحوا دم ابن الإسلام البكر: علي بن أبي طالب! رضى الله عنه وكرم الله وجهه!

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (١٢١)، ومسلم في الإيمان (٦٥)، كما رواه أحمد في المسند (١٩١٦٧)، والنسائي في تحريم الدم (٤١٣١)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٤٢)، عن جرير بن عبد الله البَجلي.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الإيمان (٣١)، ومسلم في الفتن (٢٨٨٨)، كما رواه أحمد في المسند (٢٠٤٣٩)، وأبو داود في الفتن والملاحم (٤٢٦٨)، والنسائي في تحريم الدم (٤١٢٢)، عن أبي بكرة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٥٨)، ومسلم في الزكاة (١٠٦٤)، كما رواه مالك في القرآن (٤٧٨)، وأحمد في المسند (١١٥٧٩)، وابن ماجه في المقدمة (١٦٩)، عن أبي سعيد الخدري.

(٤) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٠/ ١٠٣، ١٠٤).

وفي عصرنا نجد الابتداعات أو الانحرافات الفكرية هي أخطر ما يواجه الأمة، وهو ما يسعى أعداؤها بكل قوة، وبكل وضوح إلى تسويقه ونشره بين أبنائها، لتحريف مسيرتها، وتزييف وعيها، والتلبيس عليها، فلا تتبيَّن لها غاية، ولا يتَّضح لها طريق، وبهذا لا يمكنها أن تجتمع على شيء بيِّن. ولهذا كان أخطر أنواع الغزو الذى تواجهه الأمة المسلمة اليوم هو: الغزو الفكرى، الذى لا يحاربنا بالسيف، بل بالعلم، ولا يهتم كثيراً بقتل الأفراد، بل بقتل المجتمعات.

إن الأفكار (العلمانية) التي تنادي بفصل الدين عن الحياة والمجتمع. و(الليبرالية) التي تنادي بالحرية المطلقة للفسوق والانحلال والشذوذ والفواحش. و(الماركسية) التي تدعو إلى المادية الجدلية، ومقاومة الفكرة الدينية، ونسبية القِيَم الأخلاقية، وتحريم الملكية الفردية، ومصادرة الحرية الإنسانية: كلُّها ثمرة لهذا الابتداع أو الانحراف الفكري والاعتقادي. والثمرة لا بد أن تكون من جنس البذرة، ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨].

لهذا كان لابد من كشف مساوئها، وبيان بطلان مبادئها، ومقاومة انتشارها، ووقاية الأمة من شررها وشرورها، وكل هذا داخل في الجهاد.

٤- مقاومة الردَّة والمرتدين:

ومن جهاد الفساد والمنكر في داخل المجتمع الإسلامي: جهاد الردَّة عن الإسلام، أي: الكفر بعد الإيمان.

وإذا كان الإسلام يأمر بتغيير المنكر، ومقاومة الظلم والمعصية، إذا وقعت؛ باليد أو اللسان أو بالقلب، فإن الكفر أشدُّ خطرًا، وأعظم شراً على المجتمع من المعاصي كلها، حتى الكبائر منها، فهو أكبر الكبائر، وهو أنكر أنواع المنكر، والردَّة - خاصة - شرُّ مراتب الكفر.

وهو أول ما يحرص عليه أعداء الأمة: أن يغيِّروا هُويَّتها، ويقتلعوها من جذورها، كما قال تعالى مُحذِّرًا: ﴿وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧].

ومن الواجب على المجتمع المسلم: أن يحافظ على مقوِّماته العقدية، وخصائصه الإيمانية. فهو يتميز - أول ما يتميَّز - بإيمانه بالله الواحد الأحد،

وباليقين بالخلود والجزاء في الدار الآخرة، التي تُجْزَى فيها كلُّ بما كسبت، وبالإيمان بكتب الله ورسله جميعًا، وبأنه ختم رسله وأنبياءه بمحمد عليه الصلاة والسلام، الذي أنزل عليه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان.

وقد دعا الإسلام الناس إلى الإيمان برسالته طَوْعًا لا كرهًا، واختيارًا حرًّا، لا إجبار فيه، فإنَّ إيمان المكره لا يُقْبل في نظر الإسلام: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ولكنه لم يُرِد أن يكون الدين (ألعوبة) يلهو بها اللاَّهون، يؤمن المرء اليوم ليكفر غدًا، أو يؤمن في الصباح ليكفر في المساء، كما حكى القرآن عن طائفة من اليهود: ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢].

فمَن آمن بالإسلام عن اقتناع وبصيرة، ثم لاحت له شبهات، يجب عليه أن يعرضها على أهل العلم من المسلمين الثقات ليناقشوه فيها، ويزيلوا شبهته، وهي زائلة - إن شاء الله - لمَن يريد أن يهتدي إلى الحق، فقد جاء هذا الدين بعقائد توافق الفطرة، ومفاهيم تخاطب العقل، وشرائع تحقِّق العدل، وقِيَم وأخلاق تزكي النفس، وترتقي بالحياة.

فإذا افترضنا أنَّ هذا الشخص لم يقتنع، أو أظهر لنا أنه لم يقتنع، وفقد يقينه بحقيقة الإسلام، وصدق نبيِّه، وظلَّ ذلك في نفسه، ولم يدعُ إلى ذلك الآخرين، لينضمُّوا إلى ركبه، فأمره إلى الله، وجزاؤه في الآخرة، وفي مثله جاء قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٨) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٨٦-٨٩].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

وهكذا كل من ارتدَّ في نفسه، ولم يدعُ غيره، فجزاؤه في الآخرة.

جريمة (الردَّة) شبيهة بجريمة (الخيانة) بالمعيار الوطني:

لكن خطر هذا المرء إنما يخاف شرُّه إذا غدا داعية للكفر والردَّة داخل المجتمع المسلم، فهذا انقلاب على المجتمع، وتغيير للولاء والانتماء من أمة إلى أمة، وهو أشبه بالخيانة العظمى بالمعيار الوطني؛ فكما لا يجوز للمواطن تغيير ولائه لوطنه ولأمته، وتحويله لوطن آخر، وأمة أخرى، ولا سيما إذا كانت الأمة الأخرى تستعمر وطنه وتتحكم فيه، كذلك لا يجوز - بالمعيار الديني - أن يغيِّر المسلم ولاءه من أمة الإسلام إلى أمة أخرى، ومن وطن الإسلام - أو دار الإسلام - إلى وطن آخر أو دار أخرى. وهذا هو شأن المرتد؛ فالردَّة ليست مجرَّد تغيير موقف عقلي، بل هي تغيير للهُويَّة والولاء، وانسلاخ من أمة للانضمام إلى أمة أخرى تخالفها أو تعاديها.

ويتعاظم خطر الردَّة إذا أصبحت ظاهرة يتبجَّح بها أصحابها، ويدعون جهارًا إلى كفرياتهم، التي تهدِّد المجتمع المسلم في أساسه وأصوله وقواعده، إذا سكت عنها، وتركها تستشري وتتفاقم، وتسري كالنار في الهشيم. وهنا يجب على المجتمع المسلم أن يدافع عن كِيانه المعنوي، كما يدافع عن كِيانه المادي إذا غزاه غازٍ من خارج أرضه.

وهنا يستنفر القرآن المؤمنين المخلصين المجاهدين، ليقاوموا ردَّة المرتدين، ومروق المارقين، وذلك في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ [المائدة: ٥٤]. وهذه الآية الكريمة من سورة المائدة تدلُّنا على أن القرآن الكريم لا يسكت عن الردَّة، ولا يؤجِّل عقوبتها إلى الآخرة، كما قيل.

خطر الردَّة الجماعية:

وأخطر أنواع الردَّة هي (الردَّة الجماعية)، التي يُقلِّد فيها بعض الناس بعضًا، وتُشكِّل ثورةً مضادَّة على الإسلام ودعوته وأمته ودولته. وهو ما ابتلي به الإسلام في فجر تاريخه، بعد وفاة رسول الله ﷺ في خلافة أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه، الذي صَمَّم على أن يقاوم الردَّة والمرتدِّين، ووقف معه الصحابة في تصميمه، بعد أن تردَّد بعضهم في أول الأمر، ومنهم عمر، ولكن ثبات أبي بكر كالطود الأشمِّ، ووضوح موقفه كشمس الضحى، جعل جميع الصحابة يقفون في صفِّه مؤيِّدين، وصدورهم منشرحة أنهم على الحقِّ، ووجَّه رضي الله عنه أحد عشر جيشًا لقتال أهل الردَّة، من أتباع الأنبياء الكذبة، أمثال مسيلمة وسجاح والعنسي وغيرهم من كهنة القبائل، الذين اتبعتهم قبائلهم تعصبًا لهم، وهم موقنون بكذبهم، قائلين: كذابُ ربيعة أحبُّ إلينا من صادق مضر.

مقاومة الردَّة فريضة على المجتمع المسلم:

ومن الخطر كل الخطر: أن يُبْتلى المجتمع المسلم بالمرتدِّين المارقين، وتشيع بين جنباته الردَّة، ولا يجد مَن يواجهها ويقاومها. كما قيل: (رِدَّةٌ ولا أبا بكر لها!)[1].

ولا بدَّ من مقاومة الردَّة الفردية وحصارها، حتى لا تتفاقم ويتطاير شررها، وتغدو رِدَّة جماعية، فمعظم النار من مُسْتصغَر الشرر.

ومن ثَمَّ أجمع فقهاء الإسلام على عقوبة المرتد - وإن اختلفوا في تحديدها - وجمهورهم على أنها القتل، وهو رأي المذاهب الأربعة، بل الثمانية[2].

وفيها وردت جملة أحاديث صحيحة - وليس حديثا واحدا كما زعم بعضهم! - عن عدد من الصحابة: عن ابن عباس، وأبي موسى الأشعري، ومعاذ بن جبل، وعلي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وابن مسعود، وعائشة أم المؤمنين، وأنس بن مالك، وأبي هريرة، ومعاوية بن حَيدَة رضي الله عنهم.

---

(١) عنوان رسالة لطيفة للعلامة أبي الحسن الندوي.

(٢) انظر: رسالتنا (جريمة الردة وعقوبة المرتد) في رسائل ترشيد الصحوة. نشر مكتبه وهبة بالقاهرة، ومؤسسة الرسالة ببيروت.

وقد جاءت بصِيَغ مختلفة، مثل حديث ابن عباس: «من بدَّل دينه فاقتلوه»[1]. رواه الجماعة إلا مسلما، ومثله عن أبي هريرة عند الطبراني بإسناد حسن[2]، وعن معاوية بن حَيدَة بإسناد رجاله ثقات[3].

وحديث ابن مسعود: «لا يحلُّ دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيِّب الزاني، والتارك لدينه، المفارق للجماعة». رواه الجماعة[4].

وفي بعض صِيَغه عن عثمان: «. . . . رجل كفر بعد إسلامه، أو زنى بعد إحصانه، أو قتل نفسا بغير نفس». رواه الترمذي وحسَّنه، والنَّسائي، وابن ماجه[5]. وقد صحَّ هذا المعنى من رواية ابن عباس أيضا، وأبي هريرة، وأنس.

قال العلامة ابن رجب: (والقتل بكل واحدة من هذه الخصال متفق عليه بين المسلمين)[6].

أقول: ثبت الخلاف في القتل بالردة.

---

(١) رواه البخاري في الجهاد والسير (٣٠١٧)، وأحمد في المسند (١٨٧١)، وأبو داود (٤٣٥١)، والترمذي (١٤٥٨)، كلاهما في الحدود، والنسائي في تحريم الدم (٤٠٥٩)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٣٥)، عن ابن عباس.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط برقم (٨٦٢٣)، عن أبي هريرة، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن (٦/ ٣٩٩).

(٣) رواه الطبراني في الكبير (١٩/ ٤١٩)، عن معاوية بن حيدة، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني ورجاله ثقات (٦/ ٣٩٩).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في الديات (٦٨٧٨)، ومسلم في القسامة والمحاربون (١٦٧٦)، كما رواه أحمد في المسند (٣٦٢١)، وأبو داود في الحدود (٤٣٥٢)، والترمذي في الديات (١٤٠٢)، والنسائي في تحريم الدم (٤٠١٦)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٣٤)، عن ابن مسعود.

(٥) رواه أحمد في المسند (٤٣٧)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وأبو داود في الديات (٤٥٠٢)، والترمذي في الفتن (٢١٥٨)، وقال: حديث حسن، والنسائي في تحريم الدم (٤٠١٩)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٣٣)، عن عثمان.

(٦) انظر: شرح (الحديث الرابع عشر) من (جامع العلوم والحكم) صـ٣١١ بتحقيق شعيب الأرناؤوط طبعة الرسالة. بيروت.

فقد صحَّت الروايات عن سيدنا عمر[1]، وعن الفقيه التابعي الجليل إبراهيم النخعي، وعن الإمام سفيان الثوري[2]: أنهم لم يروا القتل لازمًا في عقوبة الردَّة، واكتفوا بحبس المرتد، ودعوته إلى التوبة والرجوع إلى الجماعة.

ولقد جرَّبت أمتنا جريمة (الردَّة الجماعية) في فجر الإسلام، بعد موت رسول الله ﷺ، وارتداد قبائل العرب، التي قلَّد بعضها بعضًا، وامتنع بعضهم من أداء الزكاة المفروضة، وتبع آخرون منهم (أنبياء كَـذَبة)، أمثال: مسيلمة كذاب بني حنيفة، وسَجَاح حليفته ثم زوجته، والأسود العَنْسي، وغيرهم، دفعتهم إلى ذلك العصبية العمياء، حتى قال قائلهم: كذَّاب ربيعة أحبُّ إلينا من صادق مُضَر!

ولولا ثبات الخليفة الأول أبي بكر وصلابته في دين الله، وإقناعه الصحابة أن يُجابهوا الموقف بقوة، لكانت هذه الردَّة كافية لاقتلاع الوجود الإسلامي من أساسه. ولكن أبى الله إلا أن يُتمَّ نوره، ونصر الله أبا بكر والمسلمين عليهم رغم كثرتهم، وظهورهم في وقت واحد.

وفي عصرنا وجدنا آثار هذه (الردَّة) في المجتمع الأفغاني المسلم، الذي ارتدَّت طائفة قليلة منه - حين اعتقدت العقيدة الشيوعية واستبدلتها بعقيدتها الإسلامية - وكانت هذه الفئة من العسكريين الذين درسوا في روسيا، فلما عادوا أحدثوا انقلابًا عسكريا استولَوا به على الحكم، وأرادوا أن يفرضوا الشيوعية عقيدةً ونظامًا على البلد المسلم والشعب المسلم.

فرفض الشعب الأفغاني ذلك وقاومهم، فاستعانوا بالسوفييت على أهليهم وقومهم، فضربوهم بالطائرات والدبابات والأسلحة المتطوِّرة، وقُتل من هذا الشعب نحو المليونين، ونحوهم من المعوقين والمصابين.

---

(١) روى سعيد بن منصور في الفتوح (٢/٢٢٦)، وعبد الرزاق في الكفر بعد الإيمان برقم (١٨٦٩٦)، وابن أبي شيبة في السير (٣٤٠٦)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٣/ ٢١٠)، والبيهقي في الكبرى كتاب المرتد (٨/ ٢٠٧)، عن عمر، وفي آخره: كنت أعرض عليهم أن يدخلوا في الإسلام، فإن أبوا استودعتهم السجن.

(٢) روى عبد الرزاق في الكفر بعد الإيمان برقم (١٨٦٩٧)، عن إبراهيم (أي النخعي) قال في المرتد: يستتاب أبدا. قال سفيان (أي الثوري): هذا الذي نأخذ به.

ولا يزال الشعب الأفغاني يعاني حتى اليوم من جرَّاء هذه الردَّة، وما خلَّفته من آثار، رغم انتصاره على السوفييت، ولكنه استبدل اليوم استعماراً باستعمار.

وكثيراً ما تُغَذَّى هذه الردَّة من قبل أعداء الدين، وأعداء الأمة، فهم يكيدون كيدهم لينفخوا في الشرارة حتى تصبح ناراً تأكل الأخضر واليابس، بل هم مستعدُّون أن يحملوا السلاح ليقاتلوا ويتحمَّلوا تكاليف الحرب، ليرتدَّ المسلمون عن دينهم، كما أعلن عن ذلك القرآن بعبارة صريحة، حين قال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧].

فكلمة ﴿وَلَا يَزَالُونَ﴾ تعني: أنهم مُستمرُّون في محاولاتهم، جادُّون في أمرهم وإن كلَّفهم ما كلَّفهم. وإن كانت الآية الكريمة أدخلت إلى قلوبنا نوعًا من الطمأنينة حين قالت: ﴿إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾، ولفظة ﴿إِن﴾ في العربية تفيد التشكيك، وهم لن يستطيعوا إن شاء الله.

وقد قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٢، ٣٣].

فهم يريدون، والله يأبى، ولن تغلب إرادتهم إباء الله! ثم إن القرآن صوَّرهم بصورة مَن يريد إطفاء ﴿نُورَ اللَّهِ﴾، مثل مَن يريد إطفاء نور الشمس بنفخة من فمه، وهو عبث من فاعله يستحقُّ السخرية، وطمعٌ في المستحيل.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

وكم رأينا المليارات تُرصَد للإنفاق على تنصير المسلمين، (تحويلهم من الإسلام إلى النصرانية)، كما رأينا ذلك في مؤتمر (كلورادو)، الذي عُقد في أمريكا سنة ١٩٧٨م بهدف معلن، وهو تنصير المسلمين في العالم، ورُصد له ألف مليون

دولار، وأُنشئ له معهد أطلقوا عليه (معهد زويمر)، ليُخرِّج مبشِّرين متخصِّصين في تنصير المسلمين، مزوَّدين بكلِّ ما يمكِّنهم من النجاح في أداء مهمتهم[1].

وهذا ما دعاني أن أقوم بجولة في عدد من البلاد العربية محذِّرًا من الخطر التنصيري القادم، ومناديًا بإقامة مؤسسة لحماية المسلمين من هذا الغزو المخطط، ولا نقول: لأسلمة العالم كما قالوا هم. وقد انتهت بإنشاء الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية بالكويت، والحمد لله.

وقد كانت الإرساليات التنصيريَّة في الربع الأخير من القرن العشرين قد وضعت مُخطَّطها لتنصير أكبر بلد مسلم في العالم - وهو إندونيسيا - في مدى خمسين عاما، وطفقوا يمارسون نشاطهم المكثَّف، ومعهم كل ما يُسهِّل لهم الوصول إلى غرضهم، حتى إنهم أنشؤوا أكثر من خمسين مطارًا في إندونيسيا تُيسِّر عليهم تنقُّلهم بين جُزُرها التي تبلغ الآلاف المؤلفة.

ولكن هذه الغارة لم يُكتب لها النجاح الذي كانت تخطط له، وإن نجحت نجاحًا جزئيًا في بعض المناطق.

واستطاعت جهود المسلمين المحدودة، التي قادها رجال مخلصون - مثل الدكتور محمد ناصر، والمجلس الأعلى للدعوة الإسلامية الذي أسَّسه - أن تردَّ كيد هؤلاء في نحورهم.

وهذا لا يعني: أن ينام المسلمون ودعاتهم على آذانهم، ويقولون: الإسلام بخير، ولا يبذلون الجهود المطلوبة والواجبة لحماية الأمة من خطر الردَّة، الذي يُواجههم؛ بل الواجب تكثيف الجهود وتجميعها وتنسيقها حتى تواجه أخطار الردَّة عن الإسلام، وخطط دعاتها ومُروِّجيها الذين يحملونها إلى المسلمين، بكل أنواعها سواء كانت الردَّة إلى النصرانية، أم الردَّة إلى الشيوعية، أم الردَّة إلى الإباحية.

فالواقع أن التنصير يعمل بكل قوة في بلاد المسلمين، وخصوصًا تلك التي تعاني من مشكلات الفقر والمرض والجهل، والحروب، والكوارث.

---

(١) انظر: كتاب (التنصير) صـ ١٨ - ٢٠، وكتاب شيخنا محمد الغزالي (صيحة تحذير من دعاة التنصير)، وانظر قبل ذلك: التبشير والاستعمار للدكتورين عمر فروخ ومصطفى الخالدي، وكتاب (الغارة على العالم الإسلامي) لمحب الدين الخطيب.

وهم في المنطقة العربية لا يطمعون كثيرًا في تغيير دين المسلم، بحيث يتحوَّل صراحة إلى النصرانية، ويكفيهم أن يُزعزعوا ثقته بالإسلام، وأن يَدَعوه في حالة لا هو مؤمن ولا كافر، المهم أن يتزلزل إسلامه.

أما في المناطق الأخرى، فهم يجتهدون أن يُدخلوا المسلم في النصرانية ما أمكنهم، وأن يُغيِّروا - ما استطاعوا - النسبة العددية للمسلمين. هكذا رأيناهم في إندونسيا وغيرها من أقطار آسيا، كما شاهدناهم في نيجيريا وغيرها من بلدان إفريقيا.

ومن اللاَّفت للنظر: أنهم برغم نجاحهم إلى حدٍّ كبير، يعلنون باستمرار عن إخفاقهم وفشلهم في تنصير المسلمين، وأحسب أن هذا الإعلان مقصود، ولهم من ورائه أهداف يريدون تحقيقها:

أولها: أن يأتي إليهم من المسيحيين في أنحاء أوربا وأمريكا مزيد تدفُّق من الدعم المالي، والتبرُّعات التي تصل أحيانًا إلى المليارات.

الثاني: تخدير المسلمين، أنهم من القوة بحيث لم يفلحوا في تحويلهم من دينهم، فيطمئنون إلى أنهم بخير، ولا يعدُّون العُدَّة لمقاومة الغزو الخطير، الذي تقوم خلفه مؤسسات وجماعات ودول.

الثالث: الإيحاء إلى العاملين في ميدان التنصير: أن يضاعفوا الجهد، حتى تأتي البذور التي بذروها في بلاد الإسلام بالثمر المرجو.

ردَّة السلطان:

وأخطر أنواع الردَّة: رِدَّة السلطان، أو رِدَّة الحاكم، الذي يُفترَض فيه أن يحرس عقيدة الأمة، ويقاوم الردَّة، ويطارد المرتدين، ولا يُبقي لهم من باقية في رحاب المجتمع المسلم، فإذا هو نفسه يقود الردَّة سرًا وجهرًا، وينشر الفسوق سافرًا ومقنَّعًا، ويحمي المرتدين، ويفتح لهم النوافذ والأبواب، ويمنحهم الأوسمة والألقاب، ويصبح الأمر كما قال المَثَل: (حاميها حراميها) ... أو كما قال الشاعر العربي:

وراعي الشاة يحمي الذئب عنها ... فكيف إذا الرعاة لها ذئاب؟!!

نرى هذا الصنف من الحكام، مواليًا لأعداء الله، معاديًا لأولياء الله، مستهينًا بالعقيدة، مستخفًا بالشريعة، ومصادرها المعصومة من القرآن العزيز والحديث الشريف، غير مُوقِّر للأوامر والنواهي الإلهية والنبويَّة، مهينًا لكلِّ مقدِّسات الأمة ورموزها، من الصحابة الأبرار، والآل الأطهار، والخلفاء الأخيار، والأئمة الأعلام، وأبطال الإسلام! وهؤلاء يعتبرون التمسُّك بفرائض الإسلام جريمة وتطرُّفا، مثل الصلاة في المساجد للرجال، والحجاب (أي: لبس الخمار) للنساء. حتى إن المرأة المحجبة لتمنع من التعلم في المدارس والجامعات، ومن التوظيف في وظائف الحكومة والقطاع العام، ومن العلاج في المستشفيات العامة، حتى الولادة، تمنع منها ما لم تخلع حجابها!

ولا يكتفون بذلك، بل يعملون وفق فلسفة (تجفيف المنابع) التي جاهروا بها، في التعليم والإعلام والثقافة، حتى لا تنشأ عقلية مسلمة، ولا نفسية مسلمة، ولا شخصية مسلمة[1].

ولا يقفون عند هذا الحدِّ، بل يطاردون العلماء والمعلمين، والدعاة الحقيقيين للإسلام، ويغلقون الأبواب في وجه كل دعوة أو حركة صادقة، تريد أن تجدِّد الدين، وتنهض بالدنيا على أساسه.

والغريب أن بعض هذه الفئات - مع هذه الردَّة الظاهرة - تحرص على أن يبقى لها عنوان الإسلام، لتستغلَّه في هدم الإسلام، ومطاردة دعاته، ولتعاملهم الأمة على أنهم مسلمون، وهم يسخرون من الإسلام، ويقوِّضون بنيانه من الداخل، وبعضها تجتهد أن تتمسَّح بالدين، بتشجيع التديُّن الزائف، وتقريب ممثليه من الدجاجلة والمرتزقة، من المنافقين الذين يحرقون لها البخور، ممَّن يتزيون بزي مشايخ الدين، والدين منهم براء! ممَّن سمَّاهم الناس (علماء السلطة، وعملاء الشرطة)!

---

(١) هذا للأسف ما يحدث جهارًا نهارًا في بلد عربي مسلم عريق - أو هكذا يفترض - مثل تونس، وبلد إسلامي آخر، قاد الأمة الإسلامية لعدة قرون، هو تركيا. انظر كتابنا: (التطرف العلماني في مواجهة الإسلام) نموذج تركيا وتونس. صـ١٢١ - ١٤٩ طبعة دار الشروق بالقاهرة.

وهنا يتعقد الموقف، فمَن الذي يقيم الحد - حد الردَّة - على هؤلاء؟ بل مَن الذي يفتي بكفرهم أولاً، وهو كفر بَوَاح كما سمَّاه الحديث الصحيح[1]؟، ومَن الذي يحكم بردَّتهم، وأجهزة الإفتاء الرسمي والقضاء الرسمي في أيديهم؟ ليس هناك إلا (الرأي العام) المسلم، والضمير الإسلامي العام، الذي يقوده الأحرار من العلماء والدعاة وأهل الفكر، والذي لا يلبث - إذا سُدَّت أمامه الأبواب وقُطِّعت دونه الأسباب - أن يتحوَّل إلى بركان ينفجر في وجوه الطغاة المرتدين. فليس من السهل أن يفرِّط المجتمع المسلم في هُويَّته، أو يتنازل عن عقيدته ورسالته، التي هي مبرِّر وجوده، وسرُّ بقائه.

وقد جرَّب ذلك الاستعمار الغربي الفرنسي في الجزائر، والاستعمار الشرقي الروسي في الجمهوريات الإسلامية في آسيا، ورغم قساوة التجربة وطولها هنا وهناك، لم تستطع اجتثاث جذور الهُويَّة الإسلامية، والشخصية الإسلامية، وذهب الاستعمار والطغيان، وبقي الإسلام وبقي الشعب المسلم.

غير أن الحرب التي شُنَّت على الإسلام ودعاته من بعض الحكام (الوطنيين)! العلمانيين والمتغرِّبين في بعض الأقطار العربية والإسلامية - بعد استقلالها - كانت أحدّ عداوة، وأشدّ ضراوة، وأعتى قساوة، من حرب المستعمرين[2].

الردَّة المغلَّفة (الفكرية) أخطر من الردة المكشوفة:

ولا يفوتنا هنا أن ننبِّه على نوع من الردَّة لا يتبجَّح تبجُّح المرتدين المعالنين، فهو أذكى من أن يعلن الكفر بَوَاحًا صُرَاحًا، بل يغلِّفه بأغلفة شتَّى، ويتسلَّل به إلى العقول تسلُّل الأسقام إلى الأجسام، لا تراه حين يغزو الجسم، ولكن بعد أن يبدو مرضه، ويظهر عَرَضه، فهو لا يقتل بالرصاص يدويّ، بل بالسم البطيء، يضعه

(١) إشارة إلى حديث: دعانا النبي صلى الله عليه وسلم فبايعناه، فقال فيما أخذ علينا: «أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفرا بواحًا عندكم فيه من الله برهان...»، وهو متفق عليه: رواه البخاري في الفتن (٧٠٥٦)، ومسلم في الإمارة (١٧٠٩)، كما رواه أحمد في المسند (٢٢٦٧٩)، عن عُبادة بن الصامت.

(٢) انظر: رسالتنا (جريمة الردة وعقوبة المرتد) صـ ٦٨ - ٧٣ من رسائل ترشيد الصحوة الإسلامية. نشر مكتبة وهبة. القاهرة. وانظر كتابنا: (التطرف العلماني في مواجهة الإسلام) نموذج (تركيا وتونس) صـ١١١ - ١٤٨ دار الشروق.

في الدسم والعسل والحلوى. وهذا يدركه الراسخون في العلم، والبُصَراء في الدين، ولكنهم لا يملكون أن يصنعوا شيئا أمام مجرمين محترفين، لا يمكِّنون من أنفسهم، ولا يَدَعون للقانون فرصة ليُمسك بخناقهم. فهؤلاء هم (المنافقون)، الذين هم في الدَّرْك الأسفل من النار، الذين يلقَون الناس بوجهين، ويتكلمون بلسانين: لسان مع أهل الدين، ولسان مع اللادينيين: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

إنها (الردَّة الفكرية) التي تطالعنا كل يوم آثارها؛ في صحف تُنشر، وكتب تُوزَّع، ومجلات تُباع، وأحاديث تُذاع، وبرامج تُشاهد، ومسلسلات تُعرض، وتقاليد تُروَّج، وقوانين تُحكَّم.

وهذه الردَّة المغلَّفة - في رأيي - أخطر من الردَّة المكشوفة؛ لأنها تعمل باستمرار، وعلى نطاق واسع، ولا تقاوَم كما تقاوَم الردَّة الصريحة، التي تُحدث الضجيج، وتلفت الأنظار، وتُثير الجماهير. وهذا ضرب من الكيد الخبيث، والمكر الكُبَّار لأعداء الأمة.

إنَّ النفاق أشدُّ خطرًا من الكفر الصريح. ونفاق عبد الله بن أُبَيٍّ ومَن تبعه من منافقي المدينة: أخطر على الإسلام من كفر أبي جهل ومَن تبعه من مشركي مكة.

ولهذا ذمَّ القرآن في أوائل سورة البقرة: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي المصرحين بالكفر في آيتين اثنتين فقط: [الآيتان: ٦، ٧]، وذكر المنافقين في ثلاث عشرة آية: [الآيات: ٨-٢١].

إنها الردَّة التي تُصابحنا وتُماسينا، وتُراوحنا وتُغادينا، ولا تجد مَن يقاومها. إنها - كما قال شيخ الإسلام الندوي - رِدَّةٌ ولا أبا بكر لها!

الجهاد الفكري والثقافي المطلوب من أمتنا:

إن الفريضة المؤكدة هنا، هي: مقاومة هذه الردَّة الفكرية، ومحاربة دعاتها بمثل أسلحتهم: الفكر بالفكر، والعلم بالعلم. حتى تُكشف أستارهم، وتُسقط أقنعتهم، وتُزال شبهاتهم بحجج أهل الحقِّ.

صحيح أنهم ممكَّنون من أوسع المنابر الإعلامية: المقروءة والمسموعة والمرئية، وتحت أيديهم كل الأجهزة والمؤسسات الثقافية والفكرية والتعليمية. ولكن قوة الحقِّ الذي معنا، ورصيد الإيمان في قلوب شعوبنا، وتأييد الله تعالى لنا: كلها كفيلة أن تهدم باطلهم على رؤوسهم: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧]، وصدق الله العظيم.

ولكن الجهاد المطلوب هنا ليس مجرَّد شعار يُرفع، ولا كلام يُقال، أو خطب تهزُّ أعواد المنابر؛ بل لا بد من **إنشاء مراكز علمية إسلامية متخصصة**، تضمُّ رجالا قادرين من أهل الفكر والعلم، للردِّ العلمي الموضوعي المنظَّم على هذه الفلسفات والدعاوى، بمنطق العصر وأسلوبه. وقبل الرد على أباطيل خصوم الإسلام، وتفنيد شبهاتهم، لابد من البدء بشرح حقائق الإسلام، وبيانها للناس بلسان أقوامهم، ولسان عصرهم.

ولا بد من **تهيئة أجيال جديدة من شباب الأمة النابهين**، ليسدُّوا هذه الثغرة، ويقوموا بأداء هذه الفريضة الكفائية نيابة عن الأمة.

ولا بد من **تأسيس معاهد عالية ذات مستوى رفيع**، تضمُّ نوابغ الشباب المتفوِّقين في عقولهم، المتميِّزين في إيمانهم وسلوكهم، لإعدادهم فكريا وعمليا، إعدادا يجمع ما في تراثنا من أصالة، وما في ثقافة العصر من حداثة.

لابد من فئة **تدرس الديانات السماوية والوضعية**، وتواريخها، وجذورها، وتطوراتها العقيدية والعملية، وتقارن بين اتجاهاتها وفلسفاتها، وموقفها من الإسلام، وموقف الإسلام منها، ونقاط الاتفاق والافتراق بينها وبين الإسلام.

ولا بد من **تخصيص فئة تدرُس العلمانية الليبرالية، وأسسها الفلسفية ونشأتها** التاريخية، وآثارها العملية، وتردُّ عليها، وتبيِّن أنها تضرُّنا ولا تنفعنا، فقد كانت ملائمة للغربيين عند ظهورها، وليست ملائمة لنا بحال.

ولا بد من **تخصيص فئة أخرى تدرُس الفلسفة الماركسية**، وأصولها الفكرية في فلسفات الألمان والإنجليز والفرنسيين، في ماديتها التاريخية، وماديتها الجدلية، وفلسفتها

في الصراع الطَبَقي، وحكم دكتاتورية البروليتاريا، ومبادئها الاقتصادية، وتجارِبها التطبيقية، وغيرها. وكيف انهارت دولتها في بلادها الأم، روسيا والاتحاد السوفيتي؟

وتخصيص **فئة أخرى تدرُس فلسفة المدرسة الوضعية** (كونت) وتلاميذه، والمدرسة الاجتماعية (دوركايم) وأتباعه، وتبيِّن ما فيهما من قصور وتهافت وعجز عن استيعاب كل جوانب الإنسان وآفاقه، والنظر إلى الكون والحياة بعين واحدة. **وهكذا سائر الفلسفات المعاصرة**، والمدارس المختلفة في الأدب والتربية والعلوم الإنسانية والاجتماعية. حتى تكون لدينا مدارس علمية وفكرية أصيلة في بحثها، عميقة في تفكيرها، متميِّزة بوِجهتها: المدرسة الإسلامية في التربية، والمدرسة الإسلامية في علم النفس، والمدرسة الإسلامية في علم الاجتماع ... إلى آخره.

وهذا المصطلح أحبُّ عندي وآثر من مصطلح علم النفس الإسلامي، وعلم الاجتماع الإسلامي، فهذا أدلُّ على المقصود من المصطلح الآخر.

وهكذا نقف على أرض صُلبة في مواجهاتنا العلمية لهذه الأفكار الجديدة التي تنشر الردَّة المُغَلَّفة في مجتمعاتنا. ولا يفلُّ الحديد إلا الحديد.

لا ندعو هنا إلى عزلة عن العالم، بل إلى التفاعل الثقافي والحضاري، فنأخذ منهم ونَدَع، وفق فلسفتنا ومعاييرنا، نختار لأنفسنا ولا يفرض أحد علينا.

وقديمًا أخذوا عنا، واقتبسوا منا، وطوَّروا ما أخذوه واقتبسوه، وبنَوا عليه حضارتهم. فلا مانع أن نصنع مثل ما صنعوا، ولكن ما نأخذه نُضْفي عليه من رُوحنا، ومن شخصيتنا ومن مواريثنا الثقافية والأخلاقية: ما يجعله جزءًا من منظومتنا الفكرية والقِيَمية والحضارية، ويفقده جنسيته الأولى.

ولقد ذكرتُ من قديم: أننا وإن كنا نرفض نظرية فرويد في التحليل النفسي وتفسير السلوك البشري، ونظرية دوركايم في الفلسفة الاجتماعية، ونظرية ماركس في فلسفة الاقتصاد والتغيير، لا يعني ذلك أن كلَّ ما قالوه خطأ في خطأ، أو باطل في باطل، فلا مانع أن يكون في بعض ما قالوه نظرات صائبة يمكن الاستفادة منها. والمؤمن يلتمس الحق من أيِّ وعاء خرج، والحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها فهو أحق الناس بها.

obeikandl.com

الفصل الخامس

مواقف الناس أمام جهاد الداخل

والناس أمام هذا الجهاد ثلاث فئات: طرفان وواسطة.

١- الانسحابيون:

فالطرف الأول: (الانسحابيون) الذين يفرُّون من هذا الميدان، أو لا يدخلونه أصلا، تاركين الطغيان يمارس نشاطه في إفساد البلاد، وإذلال العباد، والفسوق يعمل عمله في أخلاق الناس وضمائرهم، كما تعمل النار في الحطب، والغزو الفكري يفسد عقول الأمة، ويُشوِّه تصوراتها، ويفسد عليها ثقافتها، ويحرِّف دينها، ويضلِّلها عن هُويَّتها.

وهم واقفون متفرجون، لا يُحرِّكون ساكنًا، ولا يساعدون متحرِّكًا على الحركة، بل يُثبِّطون المتحرِّكين، مُتذرِّعين بدعاوى شتَّى، ما أنزل الله بها من سلطان، ولا قام عليها من العقل ولا النقل برهان.

فمنهم مَن يقول: هذه إرادةُ الله في الكون، فهل نقف ضدَّ إرادته ومشيئته؟ وما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وهل نحن مُكلَّفون أن نُنظِّم ملكه على هوانا؟ إنه سبحانه أقام العباد فيما أراد! فدَعِ الخلق للخالق، ودَعِ الملك للمالك!!

هذه نظرة بعض الصوفية (الانزوائيين) والصوفية في الإسلام: ربانية لا رهبانية، كما قال أبو الحسن الندوي. وقد ذكر الغزالي في كتاب (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) في إحياء علوم الدين: مواقف رائعة لعدد من الزاهدين والربانيين، أنكروا فيها على الخلفاء والأمراء، ولم يخافوا في الله لومة لائم. وهناك صوفية قادوا الجهاد ضدَّ المستعمر، مثل الأمير عبد القادر في الجزائر الذي ظلَّ سنين يقاوم الاحتلال الفرنسي.

ومنهم مَن يحتجُّ بالقرآن؛ أنه لا يضرُّه ضلال الضالين إذا اهتدى هو إلى الحقِّ، مشيرا إلى الآية الكريمة من سورة المائدة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ**﴾ [المائدة: ١٠٥].

وهذا الفَهم السيئ للآية، قد ظهر منذ عهد الخليفة الأول أبي بكر الصدِّيق، وقد أنكره وردَّه على المنبر، حين قال: يأيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾، وإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا الظالم، فلم يأخذوا على يديه: أوشك أن يعمَّهم الله بعقاب من عنده»[1].

والآية الكريمة - لمَن تأملها - تردُّ على من استدلَّ بها؛ لأنها تربط نفي الضرر بالاهتداء ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾، ومَن ترك فريضة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومقاومة الظلم والفساد لم يكن مهتديا بيقين.

ومنهم مَن يقول: أنا أُغيِّر بقلبي، وهذا ما في استطاعتي، ومَن غيَّر بقلبه فقد سلِم، وإن كان ذلك أضعف الإيمان.

ونسي هؤلاء ما ذكرناه قريبًا: أن التغيير بالقلب لا يعني: أن يقف المسلم من المظالم والمنكرات والفسوق والانحراف موقفًا سلبيًّا، لا يُقدِّم ولا يُؤخِّر، وإنما يعني: أن يغلي صدره حزنًا على حال الأمة، وغَيرة على حرماتها، وإشفاقًا على دينها وقِيَمها ومفاهيمها. وأنه لا يستطيع أن يقوم بعمل في المرحلة الحالية، ولكن هذه الشحنة من الغضب والغَيرة والأسى: جديرة أن تنفجر يومًا في عمل إيجابي.

الآثار واللوازم التي تدل على تغيير القلب:

وللتغيير بالقلب لوازم وآثار تدلُّ عليه، وتشير إليه.

من ذلك: **أن يقاطع مجالس المنكر والفسوق والانحراف**، ولا يجالس الظلمة والفسقة ويؤاكلهم ويشاربهم. وقد جاء في الحديث: «مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يقعد على مائدة يدار عليها الخمر»[2].

---

(١) رواه أحمد في المسند (٣٠)، وقال مُخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وأبو داود في الملاحم (٤٣٣٨)، والترمذي في الفتن (٢١٦٨)، وقال: حديث صحيح، وابن ماجه في الفتن (٥٠٠٤)، عن أبي بكر الصديق. وقال النووي: أسانيده صحيحة (رياض الصالحين: الباب الرابع عشر، والأذكار ٨٧٢)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٢٣٦).

(٢) رواه الترمذي في الأدب (٢٨٠١)، وقال: حسن غريب، والنسائي في الكبرى كتاب آداب الأكل (٤/ ١٧١)، والطبراني في الأوسط (١/ ١٨٦)، والحاكم في الأدب (٤/ ٢٨٨)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، عن جابر، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٥٠٦).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل: أنه كان الرجل يلقى الرجل، فيقول: يا هذا، اتقِ الله ودَع ما تصنع، فإنه لا يحلُّ لك، ثم يلقاه من الغد، وهو على حاله، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده! فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض»، ثم قال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٧٨-٨١]، ثم قال: «كلا والله لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر، ولتأخذنَّ على يد الظالم، ولتأطُرُنَّه على الحق أطرًا». رواه أبو داود واللفظ له، والترمذي وقال: حديث حسن غريب.

ولفظ الترمذي: قال رسول الله ﷺ: «لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا، فجالسوهم في مجالسهم، وواكلوهم وشاربوهم، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون». فجلس رسول الله ﷺ، وكان متكئا، فقال: «لا، والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحقِّ أطرا»(١).

ومَن قرأ القرآن الكريم وجد فيه وعيدًا شديدًا لمَن يجلسون في المجالس التي يُكفر فيها بآيات الله أو يُستهزأ بها ويُسخر منها، وإن لم يكن موافقا لهم في أفكارهم ومقولاتهم، ولكنه بالجلوس معهم يُشجِّعهم ويُكثِّر سوادهم.

وفي هذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

---

(١) تتمة حديث أبي داود: «ولتقصرنه على الحق قصرا»، رواه أبو داود في الملاحم (٤٣٣٦)، والترمذي في تفسير القرآن (٣٠٤٧)، وقال: حسن غريب، وابن ماجه في الفتن (٤٠٠٦) مرسلاً، عن ابن مسعود، وأورده الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب وقال: رواياه - أبو داود والترمذي - من طريق أبي عبيدة ابن عبد الله بن مسعود، ولم يسمع من أبيه، وقيل: سمع (٣/ ١٦٠). ورجَّح الحافظ ابن حجر في التقريب: أنه لم يسمع، ص٦٥٦، ففي الحديث انقطاع، وله شاهد من حديث أبي موسى رواه الطبراني كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح (٧/ ٥٣١)، فهو العمدة هنا.

هذا النهيُ جاء في القرآن المكي، ثم جاء نهي مصحوب بالوعيد في القرآن المدني، يقول تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

انظر إلى هذا التعقيب القرآني ما أشده وما أهوله! ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾، مُجالس هؤلاء حكم عليه القرآن بأنه مثلهم. وهو وعيد ترتعد له الفرائص، وترتجف له القلوب. ولا سيما مع تذييله بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾، وكأن الآية تشير إلى أن مَن فعل ذلك موسوم بالنفاق، أو قربه من النفاق المقدَّم على الكفر في الآية.

ولقد روَوا عن الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز: أن رجاله جاؤوا له بجماعة يشربون الخمر، فأمر بأن يعاقبوا العقوبة الشرعية المقرَّرة للشارب، فقالوا له: يا أمير المؤمنين! إنَّ فيهم واحدًا ليس منهم؛ إنه صائم! قال: به فابدؤوا. ثم تلا الآية الكريمة[1]: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾[2]!

ومن لوازم التغيير بالقلب أيضًا: **أن يبتعد عن الظلمة والفسقة والمنحرفين، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً**، فإنه إن لم تحرقه نارهم، أصابه دخانهم.

ولا يتفق التغيير بالقلب مع الاقتراب من الطغاة أو الوقوف على أبوابهم، أو المشي في ركابهم، أو الدخول عليهم ليُصدِّقهم بكذبهم، ويُعينهم على ظلمهم.

فعن جابر بن عبد الله، أنَّ النبي ﷺ قال لكعب بن عُجْرة: «أعاذك الله من إمارة السفهاء». قال: وما إمارة السفهاء؟ قال: «أمراء يكونون بعدي، لا يقتدون بهديي، ولا يَستنُّون بسُنَّتي! فمَن صدَّقهم بكذبهم، وأعانهم على ظلمهم، فأولئك ليسوا مني، ولستُ منهم، ولا يَرِدُون عليَّ حوضي، ومَن لم يصدّقهم بكذبهم، ولم يُعنهم على ظلمهم، فأولئك مني، وأنا منهم، وسيرِدون عليَّ حوضي»[3].

---

(١) رواه ابن جرير في التفسير (٤/٣٢٨)، وانظر: تفسير القرطبي (٥/٤١٨).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٢/٢٣٨).

(٣) رواه أحمد في المسند (١٤٤٤١)، وقال مخرِّجوه: إسناده قوي على شرط مسلم، رجاله ثقات، غير ابن خُثيم وهو صدوق لا بأس به، وعبد الرزاق في الجامع برقم (٢٠٧١٩)، وابن حبان في الصلاة برقم (٤٥١٤)، =

ويدخل في إطار هؤلاء: الشعوب والجماهير التي تصفِّق للطغاة والجبارين، وتمشي في مواكبهم، وتميل مع ركبهم، متمثِّلة بأمثال تزرع الخنوع في الأنفس، والذل في القلوب، مثل: (**الذي يتزوج أمي، أقول له: يا عَمِّي!**)، (**إذا نزلت في بلد يعبدون العجل حِش وارم له**). أي حِش (احصد) البرسيم ونحوه وأطعمه للعجل المعبود!

ومنهم مَن يتمثَّل ببعض الأمثال العربية، أو الأشعار العربية القديمة التي تؤيد هذا الاتجاه، مثل قوله: (**سلطان غشُوم خير من فتنة تدوم!**)، وقول بعضهم:

ودارهم ما دمتَ في دارهم ... وأرضهم ما دمتَ في أرضهم[1]!

وقول ثالث: **كن في الفتنة كابن اللبون، لا ظهرا فيُركب، ولا ضرعا فيُحلب!**

وبعضهم يورد الحديث القائل: «كن عبد الله المقتول، ولا تكن عبد الله القاتل»[2]!

وهذا إنما يقال في الفتنة التي تختلط فيها الأمور، ولا يعرف فيها المُحقُّ من المُبطل. فالفرار منها هو سبيل النجاة.

= والحاكم في الفتن والملاحم (٤/ ٤٢٢)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، والبيهقي في الشعب باب مباعدة الكفار (٧/ ٤٦)، عن جابر، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أحمد والبزار ورجالهما رجال الصحيح (٥/ ٤٤٥)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب: رواه أحمد والبزار ورواتهما محتج بهم في الصحيح (٣/ ١٣٤)، ورواه بلفظ قريب عن كعب بن عُجْرة أحمد في المسند (١٨١٢٦)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين، غير عاصم العدوي فمن رجال الترمذي والنسائي، وهو ثقة، والترمذي في الفتن (٢٢٥٩)، وقال: حديث صحيح غريب، والنسائي في البيعة (٤٢٠٧)، وابن حبان في البر والإحسان برقم (٢٧٩)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح، والطبراني في الكبير (١٩/ ١٣٤)، وفي الأوسط برقم (٢٧٣٠)، والحاكم في الإيمان (١/ ٧٩)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، والبيهقي في الشعب باب المطاعم والمشارب برقم (٥٧٦٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات (١٠/ ٣٩٨).

(١) البيت لابن شرف.

(٢) رواه أحمد في المسند (٢٢٤٩٩)، وقال مخرِّجوه: حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف لضعف علي ابن زيد، والطبراني في الكبير (٤/ ١٨٩)، والحاكم في الفتن والملاحم (٤/ ٥١٧)، وقال: تفرد به علي ابن زيد ولم يحتجا بعلي، عن خالد بن عُرْفُطَة، وسكت عنه الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أحمد والبزار والطبراني وفيه علي بن زيد وفيه ضعف، وهو حسن الحديث، وبقية رجاله ثقات (٧/ ٥٩٠).

ولكن حين يتبيَّن وجه الحقِّ، فلا مجال للفرار من مواجهة الباطل، ومصارعة الطغيان، وليس من الضروري أن تكون المواجهة بالسلاح، فقد رأينا الحديث يجعل الجهر بـ(كلمة الحق) أفضل الجهاد عند الله.

فالمواجهة السِّلمية يجب أن تكون هي الأصل في الوقوف في وجه الظالمين، ويجب أن تُدرَّب الشعوب على ذلك، وأن تُوضع الآليات الملائمة للتحرُّر من نير الطغاة والمستبدِّين.

وقد وصل العالم إلى صيغ معقولة، اكتسبها من ممارسته التاريخية الطويلة في مواجهة سلاطين الجَور، وأمراء الطغيان. وعلينا - نحن المسلمين - أن نقتبس منها ما يناسبنا، ونُضفي عليه، من رُوحنا، ومن مواريثنا، ومن قِيَمنا، ومن شريعتنا، ما يصبغها بالصِّبغة الربانية الإسلامية.

ومن ذلك: البرلمانات المنتخَبة، وحرية تكوين الأحزاب، وحرية الصحافة، وحرية المعارضة للحكومة، والفصل بين السلطات، وحقُّ الأمة في انتخاب الحاكم ومحاسبته وعزله سلميًا ... إلخ.

ومن ذلك: حرية المنابر، أي حرية علماء الدين في النصح والتوجيه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالمسجد ليس للحكومة، وإنما هو لله وحده، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

أما الاستسلام للجبابرة والمستكبرين في الأرض بغير الحقِّ بالتبريرات المختلفة التي يتمسَّح بها الناس من أمثال وأشعار، فإن هذا المنطق التبريري للظلم الصارخ لا يُقبل في ميزان الإسلام، ولا يصلح في مجال السياسة، ولا يستفيد منه إلا الجبابرة والمستبدُّون، المسلَّطون على الناس، ليطول بقاؤهم، ويستمرَّ طغيانهم.

بل رأينا القرآن يَدين هذه الشعوب التي تستسلم للطغاة، وتتَّبع أمرهم، وتسير في مواكبهم طائعة منقادة، ومتحملة الإثم مع سادتهم الجبابرة المستكبرين في الأرض، كما قال تعالى على لسان نوح عليه السلام يشكو من قومه: **﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾** [نوح: ٢١].

وقال عن عاد قوم هود: **﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾** [هود: ٥٩].

وقال عن قوم فرعون: **﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾** [هود: ٩٧، ٩٨].

وقال عن فرعون: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤].

إن القرآن يَدين الأتباع كما يَدين المتبوعين، ويُدخلهم جميعا النار، ولا يقبل اعتذار الأتباع بأن سادتهم وكبراءهم أضلُّوهم السبيل، كما نرى في محاجَّتهم بعضهم لبعض يوم القيامة، في مشاهد شتَّى في عدد من سور القرآن مكية ومدنية.

فمن القرآن المكي قوله تعالى في سورة سبأ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا....﴾ [الآيات: ٣١-٣٣].

وفي القرآن المدني تجد هذا المشهد في سورة البقرة: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧].

وقد تكرَّر هذا المشهد في سورة الأعراف، وسورة الأحزاب، وسورة الصافات، وسورة ص.

٢- الهجوميون (دعاة العنف المسلح):

وهناك فئة على النقيض من هؤلاء تمثِّل الطرف المقابل، هم الذين يستخدمون العنف، ويَدْعون إلى الخروج المسلَّح، بلا حكمة، ولا تحقيق لشروطه، ولا دراسة لعواقبه، وآثاره: أيصلح أم لا يصلح؟ أيضرُّ أم ينفع؟

وهذا ما قامت عليه جماعات (الجهاد) في عصرنا، التي ظهرت في أكثر من بلد إسلامي، أحسب أنها بدأت في مصر، ثم انتقلت إلى الجزائر، وإلى غيرها من بلاد العرب والمسلمين.

وأفكارها خليط من السلفية المتشدِّدة، وجماعة التكفير، وجماعات العمل المسلَّح.

وأفكار هؤلاء شبيهة بأفكار الخوارج في تاريخنا القديم.

فقد تميَّز الخوارج بالقول بوجوب الخروج على حكام زمانهم، الذين اعتبروهم ظالمين، بل كافرين. بل إن مجرَّد تسميتهم (الخوارج) تدلُّ على ذلك؛ أي خوارج على الحكام. وإن كانوا في الواقع خوارج على الحكَّام وعلى الأمة أيضًا.

فهم يُكَفِّرون الحكام بجَورهم وارتكابهم المظالم والمعاصي، بل هم يُكَفِّرون كل مَن ارتكب كبيرة ولم يتُب منها، حاكما أو محكوما.

ويُكَفِّرون مَن رضي بحكم هؤلاء الأمراء، وسكت عنهم، ولم يعادهم، ويقف في وجههم ثائرا عليهم، عاصيا لهم.

وقد تميَّز الخوارج بكثرة العبادة، من قيام الليل، وصيام النهار، وتلاوة القرآن. كما وصف أبو حمزة الشاري أصحابه، فقال:

(شباب والله مكتهلون في شبابهم، غضيضة عن الشر أعينهم، ثقيلة عن السعي في الباطل أقدامهم، قد باعوا لله أنفسًا تموت بأنفس لا تموت، قد خالطوا كلالهم بكلالهم، وقيام ليلهم بصيام نهارهم، منحنيةً أصلابهم على أجزاء القرآن، كلما مرُّوا بآية خوف شهقوا خوفًا من النار، واذا مرُّوا بآية شوق شهقوا شوقًا إلى الجنة، فلمَّا نظروا إلى السيوف قد انتُضيت، وإلى الرماح قد شُرعت، وإلى السهام قد فُوِّقت، وأرعدت الكتيبة بصواعق الموت، استخفُّوا والله وعيد الكتيبة لوعيد الله في القرآن، ولم يستخفُّوا وعيد الله لوعيد الكتيبة، فطوبى لهم وحسن مآب، فكم من عين في مناقير الطير طالما فاضت في جوف الليل من خشية الله، وطالما بكت خاليةً من خوف الله، وكم من يدٍ زالت عن مفصلها طالما ضربت في سبيل الله وجاهدت أعداء الله، وطالما اعتمد بها صاحبها في طاعة الله، أقول قولي هذا وأستغفر الله من تقصيري، وما توفيقي إلا بالله)[1].

(١) رواه ابن جرير في التفسير (٤/ ٣٣٠).

وهو ما عبَّر عنه الحديث الصحيح: «يحقِر أحدكم صلاته إلى صلاتهم، وصيامه إلى صيامهم، وقراءته إلى قراءتهم . . .»[1]. فهم عُبَّاد نُسَّاك، صُوَّام قُوَّام.

ولكن آفتهم أن الغلو دفعهم إلى استحلال دماء مَن سواهم من المسلمين، كما جاء في الحديث في وصفهم أنهم: «يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان»[2].

وقد ذكروا أن أحد المعتزلة وقع في أيديهم، فلما سئل عن عقيدته، لم يقل لهم: أنا مسلم. بل قال: مشرك مستجير! فتلَوا قول الله تعالى: ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ**﴾ [التوبة: ٦]، فأسمعوه شيئا من القرآن، ثم أبلغوه مأمنه، ولم يمسُّوه بسوء. ولو قال لهم: أنا مسلم، لم يسلم من أيديهم!

مستند دعاة الخروج المسلَّح:

ولهؤلاء الدعاة إلى الخروج المسلح على حكَّام الجَور: أدلة يستندون إليها في موقفهم، يستمدونها من ظواهر القرآن والسنة.

فمن القرآن قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ**﴾ [هود: ١١٣].

وقوله تعالى: ﴿**وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ . . . فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . . . فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ [المائدة: ٤٤، ٤٥، ٤٧].

ولا تجوز طاعة كافر أو ظالم أو فاسق، فكيف إذا ضمَّ هذه الخصال كلها من الفسوق والظلم والكفر؟ وكما يقول الشاعر:

ولو كان رمحا واحدا لاتقيتُه ... ولكنه رمح وثان وثالث!

---

(١) متفق عليه عن أبي سعيد، وقد سبق تخريجه صـ١٩٥ .

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤٤)، ومسلم في الزكاة (١٠٦٤)، كما رواه أحمد في المسند (١١٦٤٨)، وأبو داود في السنة (٤٧٦٤)، والنسائي في الزكاة (٢٥٧٨)، عن أبي سعيد.

وقد ذمَّ الله قوما اتبعوا فراعينهم وجباريهم، ولم يقفوا في وجوههم رافضين معارضين، كما قال عن قوم فرعون: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧]، ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤].

وقال عن عاد قوم هود: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [هود: ٥٩، ٦٠].

وقال صالح لقومه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء: ١٥٠-١٥٢].

وفي السنة جاءت أحاديث تحذِّر من السير في ركاب الظالم، أو الطاعة له في معصيته، أو تصديقه بكذبه، أو عونه على ظلمه.

وقد ذكرنا بعضها فيما سبق، ومنها قوله عليه الصلاة والسلام:

«السمع والطاعة حق على المرء المسلم، فيما أحبَّ وكره، ما لم يُؤمر بمعصية، فإذا أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»(١).

«مَن رأى منكم منكرًا فليغيره بيده . . .» إلخ الحديث(٢).

وقال عن أمراء السُّوء الذين لا يهتدون بهديه، ولا يقتدون بأمره، «فمَن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومَن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومَن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»(٣).

وهذه النصوص كلها تُوجب على الأمة: ألا تطيع أمر هؤلاء المسرفين، ولا تتَّبع أمر هؤلاء الجبَّارين، ولا تركن إلى هؤلاء الظالمين، حتى لا يحيق بالأمة ما حاق بمَن اتبعوا أمر الجبابرة في عاد، وأطاعوا أمر المفسدين في ثمود، واتَّبعوا أمر

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٥٥)، ومسلم في الإمارة (١٨٣٩)، كما رواه أحمد في المسند (٦٢٧٨)، وأبو داود (٢٦٢٦)، والترمذي (١٧٠٧)، كلاهما في الجهاد، والنسائي في البيعة (٤٢٠٦)، عن ابن عمر.

(٢) رواه مسلم في الإيمان (٤٩)، وأحمد في المسند (١١١٥٠)، وأبو داود في الصلاة (١١٤٠)، والترمذي في الفتن (٢١٧٢)، والنسائي في الإيمان (٥٠٠٨)، وابن ماجه في الفتن (٤٠١٢)، عن أبي سعيد الخدري.

(٣) رواه مسلم عن ابن مسعود، وقد سبق تخريجه صـ١٨٧.

فرعون في مصر، وأن عليهم أن يغيِّروا منكرهم بأيديهم، وأن يجاهدوا ويقاوموا انحرافهم وظلمهم بأيديهم، أي بالقوة المادية.

وغفل هؤلاء الإخوة المتحمِّسون: أن استعمال القوة في إزالة المظالم وتغيير المنكر، له شروطه التي يجب أن تراعى، وله ضوابطه التي يُنظر فيها إلى (المآلات): وهي النتائج والآثار التي تترتَّب على التغيير باليد، فكيف إذا كان التغيير بالمقاتلة والمجاهدة بالسيف والآلة؟

وسنعود إلى هذا الموضوع لنعرضه ونناقشه بتفصيل في باب: (الاقتتال داخل الدائرة الإسلامية) تحت عنوان: (قتال الأنظمة الحاكمة).

٣- الفئة الوسط بين هؤلاء وأولئك:

وبين المغالين في الاستسلام لظلمة الولاة والسلاطين، والمغالين في التمرُّد عليهم، وحمل السلاح خروجًا عليهم، دون حساب لعواقب هذا الخروج، وما قد يُوقعه من مآسٍ ومظالم: توجد الفئة الوسط التي لا تسكت عن المنكر وهو يشيع، ولا تُغمض العين على الفساد وهو يستشري، ولا على الظلم وهو يتفاقم ويتكاثر.

وهذا سبب خراب الدولة، وهلاك الأمة كلها، صالحيها وطالحيها، إذا لم يقفوا في وجه الظالم، كما قال تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ [الأنفال: ٢٥].

فقد قضت سنَّة الله في خلقه: أن الظلم نذير الهلاك والدمار، كما قال تعالى: ﴿**فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾ [النمل: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿**وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً**﴾ [الكهف: ٥٩].

وقال ﷺ: «إنَّ الله ليُملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته». ثم تلا: ﴿**وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ**﴾ [هود: ١٠٢][(١)].

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٦٨٦)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٣)، كما رواه الترمذي في تفسير القرآن (٣١١٠)، وابن ماجه في الفتن (٤٠١٨)، عن أبي موسى الأشعري.

ولهذا قرَّر العلماء والحكماء: أن الله تعالى يُبقي الدولة الكافرة مع العدل، ويُهلك الدولة المسلمة مع الظلم.

فالإسلام وحده لا يحمي الدولة إذا ظلمت وجارت وتجبَّرت في الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٥]، كما أن الكفر وحده لا يُزيل الدولة، إذا تحصَّنت بالعدل والإنصاف ورعاية حقوق الناس.

وهذا ما يجعل هذه الفئة البصيرة تقاوم الظلم والفساد والتجبُّر في الأرض، بالوسائل السِّلمية، دون أن تَشهَر سلاحا، أو تثير فتنة في الأرض، وهي تحرص كلَّ الحرص على ألا تُزيل المنكر القائم، فتقع في منكر أكبر منه، من سفك دماء الأبرياء، وتدمير المنشآت التي هي في النهاية ملك الأمة، وإشاعة الخوف والرعب في الناس، والتضييق على الدعوة الإسلامية، وإلقاء الألوف في السجون والمعتقلات . . . إلخ.

كثرة الوسائل السلميَّة في عصرنا:

والوسائل السِّلمية في عصرنا كثيرة، منها:

خطب الجمعة في المساجد، التي يلقيها خطباء علماء واعون، ينطقون بالحكمة لا بالإثارة، وبالموعظة الحسنة، لا بالموعظة الخشنة.

والمحاضرات التي يقوم بها علماء ومفكرون، بطريقة علمية منهجية، تقنع العقل أكثر مما تلهب العاطفة، وهذه كثيرا ما تقنع الخواص، إذا كانت الخطب تنوِّر العوام.

ومنها: **الدروس الدينية والتربوية** التي توجَّه إلى جماهير الناس في المساجد والأندية وغيرها.

ومنها: **النشرات القصيرة المركزة** التي تحمل فكرة نيِّرة محدَّدة، تريد تبليغها إلى قارئها.

ومنها: **المقالات** التي تُكتب في الصحف اليومية، أو في المجلات الأسبوعية، أو الشهرية أو الفصلية أو السنوية. وكل منها له جمهوره، وله مستواه.

وهناك **البرامج العلمية والثقافية والدعوية والتربوية**، التي تقدَّم في وسائل الإعلام، من إذاعة وتلفزيون، ولا سيما في عصر الفضاء والإنترنت الذي أصبح وسيلة عالمية جبارة تستطيع أن تصل إلى الناس في كل مكان، ولا يسهل على الحكومات الوقوف في سبيلها.

ويمكن **إصدار مجلة دورية أو صحيفة يومية** تقوم بهذا الدور، يقوم عليها إعلاميون رساليون.

ويمكن **اللجوء إلى القضاء** الذي يعد سلطة مستقلة، للوقوف ضد طغيان السلطة التنفيذية، وكثيرًا ما ينصف القضاء المؤسسات الشعبية في مواجهة الحكومة.

كما يمكن **إنشاء جمعية ثقافية أو تربوية** تقوم بهذه المهمة، بطريقة علنية رسمية.

بل يمكن **تكوين حزب سياسي** يهتمُّ بتقويم سلوك الحكومة إذا اعوجَّ في ناحية أو أكثر من النواحي، عملا بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقياما بواجب الدعوة إلى الخير، والنصيحة في الدين، والتواصي بالحقِّ، والتواصي بالصبر، والتواصي بالمرحمة، كما وجَّهنا إلى ذلك القرآن الكريم والسنة النبوية.

أو يتخذ هذا الحزب خطًّا معارضًا لسياسة الحكومة بالكلية، ولا حرج في ذلك ما دام يعتمد على الطرق السِّلمية، وهو ما سمح به سيدنا علي رضي الله عنه، للخوارج إذا لم يحملوا السلاح في وجوه المسلمين[1].

فقد أثنى الله تعالى على الأمة بقوله: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾ [آل عمران: ١١٠]، فجعل سبب خيريَّتها: الأمر والنهي مع الإيمان.

وقال في وصف المؤمنين: ﴿**التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ**﴾ [التوبة: ١١٢].

كما شدَّد النكير، وأنحى بالذمِّ واللائمة على مَنْ فرَّط في فريضة الأمر والنهي من الأمم السابقة، كما قال تعالى: ﴿**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ**﴾ [المائدة: ٧٨]، ثم بيَّن سبب لعنتهم، فقال: ﴿**كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**﴾ [المائدة: ٧٩].

اجتهدت هذه الفئة أن تُبْرئ ذمَّتها بأداء هذه الفريضة الاجتماعية العظيمة: الأمر والنهي، والدعوة والنصيحة، والتوصية بالحق وبالصبر، في رفق وحكمة وفي أناة، مجادلة مخالفيها بالتي هي أحسن، كما قال الله عزَّ وجلَّ.

(١) سيأتي قول سيدنا علي بنصه في الباب الثامن.

وإذا سُدَّ في وجهها باب، حاولت بالعقل والحيلة والمكر الحسن: أن تجد بابًا آخر، فإن أبواب الخير كثيرة، وقد جرت سنة الله: أنه لا يغلق بابًا إلا فتح بابًا آخر، من حيث لا يحتسب الناس، سنة الله في خلقه. وقد وعد الله المتقين أن يُخرجهم من المآزق، كما قال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

من الذي يُغيِّر المنكر بالقوَّة؟

أما تغيير المنكر بالقوة المادية أو باليد كما عبَّر الحديث الشريف في صحيح مسلم: «مَن رأى منكم منكرا فليغيره بيده»[1]. فهذا إنما هو مشروع لكل ذي سلطان في دائرة سلطانه:

الأب في دائرة أسرته (زوجته وأولاده القُصَّر)، المدير في حدود إدارته، الوالي في حدود ولايته، وهكذا كل مَن له السلطة والقدرة على التغيير في دائرة معينة، هو مسؤول عنها، مُولًّى عليها، يستطيع أن يُغيِّر فيها المنكر بيده، ولا يُحدث فتنة ولا فسادًا، يترتَّب على التغيير المطلوب، فإن عجز عن ذلك أو ترتَّب عليه فساد وشرٌّ أكبر من الشرِّ الواقع: انتقل فرض التغيير باليد إلى التغيير باللسان، فمَن عجز عن اللسان: انتقل إلى أدنى المراتب وآخرها، وهي: التغيير بالقلب، وذلك أضعف الإيمان.

وسنعود لحديث مُفصَّل عن هذا (الجهاد الداخلي) وشروطه وضوابطه، في باب القتال داخل الدائرة الإسلامية: قتال الأنظمة الجائرة، وقتال أهل البغي، وما يضبطه من أحكام، وما فيه من تفصيل، فقد وقع فيه خلل كبير، وأخطاء كثيرة، اعترف بها الذين قاموا بها أنفسهم في مراجعاتهم[2].

***

(١) رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري، وقد سبق تخريجه صـ٢٢٠.

(٢) انظر: (تسليط الأضواء على ما وقع في الجهاد من أخطاء) من (سلسلة تصحيح المفاهيم) إصدار الجماعة الإسلامية في مصر، نشر مكتبة التراث الإسلامي. وهو كتاب جيد، يدلُّ على وعي وحسن فقه من مؤلفيه، وشجاعة في إعلان خطأ أنفسهم، قلَّما تتوافر إلا للقليل من الناس. غفر الله لنا ولهم.

الفصل السادس

مرتبة جهاد اللسان والبيان
أو (الجهاد الدعوي والإعلامي)

جهاد اللسان وما يتفرَّع عنه:

ومن أنواع الجهاد المفروض على المسلم ومراتبه: الجهاد باللسان، وذلك بالدعوة إلى الإسلام وبيان محاسنه، وإبلاغ رسالته، بلسان الأمم المدعوَّة ليبيِّن لهم، وإقامة الحُجَّة على المخالفين بالمنطق العلمي الرصين، والردُّ على أباطيل خصومه، ودفع الشبهات التي يثيرونها ضدَّه، كل إنسان بما يقدر عليه.

ذلك أن الله تعالى امتنَّ على الإنسان بتعليمه البيان: ﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١-٤]. والبيان منه النُطقي، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ [البلد: ٨، ٩]، ومنه البيان الخطِّي.

ولهذا يدخل في جهاد اللسان: جهاد القلم أيضًا، فالقلم أحد اللسانين، كما قال العرب. وقد أقسم الله تعالى بالقلم في كتابه بقوله: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١] وقال: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق: ٣، ٤].

وقلم عصرنا هو: المطبعة وما تفرَّع عنها، من هذا الحاسوب (الكمبيوتر)، وكل ما يصنع الكلمة المكتوبة، مثل شبكة الإنترنت.

وقد قال تعالى في سورة الفرقان خطابًا لرسوله: ﴿فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]، جاهدهم به: أي بالقرآن، فاعتبر الجهاد بالبيان والقرآن جهادًا، بل جهادًا كبيرًا.

وعن أنس، عن النبي ﷺ قال: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم»[1].

(١) رواه أحمد في المسند عن أنس، وقد سبق تخريجه صـ ٦٦.

الشعر سلاح في المعركة مع المشركين:

وعن كعب بن مالك - وكان من شعراء النبي ﷺ - أنه قال: يا رسول الله! ما ترى في الشعر؟ قال: «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده، لكأنما تنضحونهم بالنَّبل»[1]. أي: كأنكم بشعركم ترمونهم بالنبل.

وعن البَرَاء، أن النبي ﷺ قال لحسَّان: «اهجُهُمْ - أو هاجهم - وجبريل معك»[2].

وقال له النبي ﷺ: «أجب عني، اللهم أيِّده برُوح القُدُس»[3].

وعن عائشة: أنَّ النبيَّ ﷺ، كان يضع لحسان المنبر في المسجد، فيقوم عليه قائمًا، يهجو الذين كانوا يهجون النبي ﷺ، فقال رسول الله: «إن رُوح القُدُس مع حسَّان، ما دام ينافح عن رسول الله ﷺ»[4].

ولقد استثنى القرآن من الشعراء المذمومين: فئة منهم وصفهم الله بأربع صفات جعلتهم من أهل الخير والصلاح. وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ**﴾ [الشعراء: ٢٢٤-٢٢٧].

الحرب الإعلامية:

لقد كان الشعر سلاحًا في المعركة مع المشركين، الذين لم يألوا جهدا في توظيف كل طاقاتهم لحرب دعوة الإسلام. وكان الرسول ﷺ أبصر منهم وأهدى وأقدر في توظيف هذه القوى والقُدرات بما يخدم أهداف الدعوة، ويُحقِّق النصر

(١) رواه أحمد في المسند (١٥٧٨٥)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وسماع عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب من جده كعب بن مالك مختلف فيه، والصحيح سماعه منه، وابن حبان في السير (٤٧٠٧)، والطبراني في الكبير (١٩/ ٧٥)، والبيهقي في الكبرى كتاب الشهادات (١٠/ ٢٣٩)، عن كعب بن مالك، وصحح الألباني سنده في الصحيحة (١٦٣١).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢١٣)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٨٦)، كما رواه أحمد في المسند (١٨٦٥٠)، عن البراء بن عازب.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢١٢)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٨٥)، كما رواه أحمد في المسند (٢١٩٣٦)، والنسائي في المساجد (٧١٦)، عن حسان بن ثابت.

(٤) رواه أبو داود (٥٠١٥)، والترمذي (٢٨٤٦)، وقال: حديث حسن صحيح، كلاهما في الأدب، وأبو يعلى في المسند (٨/ ٦٧)، عن عائشة، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٦٥٧).

على الأعداء. وكان هذا كلُّه جزءًا مما يسمُّونه الآن: (الحرب الإعلامية)، وهي حرب سلاحها الكلمة، مقروءة أو مسموعة أو مشاهدة، وهو سلاح له خطره وتأثيره النفسي على العدو، سواء على الجيش المقاتِل أم على الجبهة الداخلية.

ولقد كان الرسول ﷺ يحسب حساب الحملات الإعلامية التي يثيرها المشركون، لتشويه صورة الدعوة وصاحبها. ولهذا حين اقترح عليه بعض الصحابة أن يستريح من المنافقين الأشرار، أمثال عبد الله بن أُبَيٍّ ومَنْ يشابهه بقتلهم، قال: «أخشى أن يتحدَّث الناس: أنَّ محمدًا يقتل أصحابه»[1]. ومعنى هذا: أنه خشي من آثار الحملة الإعلامية المُضَادَّة والمُضلِّلة، التي تنتهز أي حدث للتشكيك والتشويش. وهذا يدلنا على مدى خطورة الإعلام وتأثيره.

من صور الجهاد باللسان والبيان في عصرنا:

والجهاد باللسان والبيان في عصرنا يتخذ صُورًا عدة:

منها: **البيان الشفهي** بالخطب والدروس والمحاضرات، التي تخاطب الناس بألسنتهم لتُبيِّن لهم، وتخاطبهم على قدر عقولهم.

ومنها: **البيان التحريري**، المكتوب باللغات المختلفة لتبليغ رسالة الإسلام إليهم، عن طريق الكتب والرسائل والنشرات والبحوث والمقالات، التي تخاطب الناس على مستويات شتَّى، كل بما يليق به.

وهذا البيان بنوعيه الشفهي والتحريري، يحقق معنى الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، التي أمر الله تعالى بها في كتابه، إذ قال: ﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ**﴾ [النحل: ١٢٥].

وقد بعث النبي ﷺ رسائل مكتوبة إلى كسرى وقيصر وغيرهما من القادة، بل القرآن نفسه رسالة مكتوبة من الله عز وجل إلى خَلقه، ولذا سُمِّي (كتابا)، لأنه يكتب، كما سُمِّي (قرآنا)، لأنه يقرأ.

ومنها: **البيان عن طريق الحوار**، وهو المأمور به في قوله تعالى: ﴿**وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ [النحل: ١٢٥]، ﴿**وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ**﴾ [العنكبوت: ٤٦].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٩٠٥)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٤)، كما رواه الترمذي في تفسير القرآن (٣٣١٥)، وأحمد في المسند (١٥٢٢٣)، عن جابر بن عبد الله.

ويشمل هذا ما يُسمَّى اليوم (حوار الأديان) أو (حوار الحضارات)، وهو جزء من الجدال بالتي هي أحسن، الذي أُمرنا به. ومن المسلمين لا يؤمن بفكرة حتمية صراع الحضارات، الذي دعا إليها داعون من الأمريكان، بل نرى أن الحضارات يمكن أن تتعايش، بل يجب أن تتعايش، وتتفاعل وتتلائم ويغذي بعضها بعضًا، ويأخذ بعضها من بعض، وينصح بعضها لبعض.

ويدخل في هذا أو يقترب منه: **البيان الإعلامي**، المتمثِّل في الأعمال الدرامية عن طريق القصة والمسرحية والتمثيلية و(الفيلم) والمسلسل، الذي يقدَّم في الإذاعة أو في التلفاز، أو في (السينما) أو في المسرح، ويكون له تأثير هائل في السامعين والمشاهدين، على أن تكون هذه الأعمال في إطار الشرع وضوابطه.

وقد أصبح الإعلام في عصرنا من أنجع الوسائل - إن لم يكن أنجعها - في تبليغ الدعوة، عن طريق (الإذاعات الموجَّهة) بلغات مختلفة. وعن طريق (القنوات الفضائية) التي باتت تُعدُّ من أعظم آليات الغزو الفكري والدعوة في عصرنا.

ومن رأى أثر برنامج (الشريعة والحياة) الذي يبثُّ من (قناة الجزيرة) في قطر، والذي أكرمني الله بتقديمه للمشاهدين منذ نشأة الجزيرة (ما لم أكن غائبًا)، وكيف يترقَّبه الملايين في كلِّ مكان ممَّن يعرفون العربية، حتى من غير المسلمين: عرَف قيمة الإعلام الفضائي وما يمكن أن يؤدِّيه من دَور[1].

ومن الوسائل المهمة في (الجهاد البياني) أو (الجهاد الدعوي) و(التعليمي) في عصرنا: **شبكة المعلومات العالمية** المعروفة بـ(الإنترنت)، والتي يتَّسع نطاقها يومًا بعد يوم، ويُقبل الناس على الاستفادة والتعلُّم منها من شرق وغرب بعشرات الملايين ومئات الملايين[2].

وأعتقد أن هذا الجهاد هو الجهاد الأهم والأخطر في عصرنا، وهو الذي يحتاج إلى تجنيد الجنود، وتعبئة الجهود، وإزالة السدود، ليقوم بدوره المنشود في هذا

(١) أثبتت الإحصاءات - بالأرقام - التي قامت بها بعض الجهات: أن هذا البرنامج هو أكثر البرامج مشاهدة في قناة الجزيرة، وهو ما أعلمني به المسؤولون في الجزيرة.

(٢) وعلى ضوء ذلك، أسسنا موقعنا الإسلامي العالمي على الإنترنت، وهو (إسلام أون لاين. نت) ليؤدِّي رسالته في تعليم المسلمين الإسلام الصحيح، وتبليغ غير المسلمين ذلك، بأسلوب عصري سليم وسريع ومشوِّق، وقد أمسى مِلء الأسماع والأبصار في العالم كله، ويدخله الملايين باللغة العربية واللغة الإنكليزية.

العصر. ولا يجوز للمسلمين أن يضنُّوا عليه بنفس ولا مال، فإن الله تعالى سائلهم عن ضلال أمم الأرض: لماذا لم يبلغوهم رسالة الله، ودعوة الإسلام؟

ولقد قلتُ في افتتاح موقع (إسلام أون لاين. نت) (www.Islamonline.net) في أكتوبر ١٩٩٩م في قطر: إن هذا هو جهاد العصر المطلوب منا. فلم نعُد في حاجة إلى تجييش الجيوش، لإزاحة السلطات الظالمة، حتى نتيح للشعوب أن تسمع كلمة الإسلام، بل فتحت لنا هذه الوسائل الطريق، لنصل مباشرة إلى هذه الشعوب.

أهمية إعداد المؤسَّسات الإعلاميَّة وتهيئة الطاقات البشريَّة:

ولا بد من **إعداد مؤسسات إعلامية وتربوية وثقافية وتقنية** لهذا الهدف النبيل، تكون على مستوى الهدف، ومستوى الأمة، ومستوى العالم، ومستوى العصر.

ولا بد من **تهيئة الطاقات البشرية** (الكوادر) المتخصصة والمدربة، والمؤمنة بهذه الرسالة العالمية الثابتة، والقادرة على تبليغها إلى شعوب العالم بلغاته المختلفة. وهو أمر لو تعلمون عظيم.

وهذا من (الفروض الكفائية) على الأمة، والتي تجب عليها بالتضامن، ويجب على (أولي الأمر) خاصة (من أهل العلم وأهل الحكم): أن يتعاونوا في تهيئة الأسباب، لإقامة هذه الفروض، فإن قام بها عدد كاف يُلبِّي الحاجة، سلِمت الأمة من الإثم والحرج؛ وإلا أثمت الأمة كلها، حتى تراجع نفسها، وتستكمل نواقصها.

ولا بد من **توفير التمويل اللازم لهذا العمل**، وهو من (الجهاد بالمال) المفروض على الأمة، ويمكن أن يُموَّل من الزكاة الواجبة، من مصرف (في سبيل الله)، ومن الصدقات المندوبة، ومن وصايا الموتى، ومن عوائد الأوقاف، ومن كل مال فيه شبهة أو كسب خبيث، فهو حرام على صاحبه، حلال لهذه المشروعات.

***

obeikandl.com

الفصل السابع

مرتبة الجهاد المدنيّ

أنواع الجهاد الذي أمر به الإسلام:

عرفنا أن الجهاد الذي يأمر به الإسلام أنواع:

فهناك (**الجهاد العسكري**)، بمعنى القتال للأعداء: بالفعل، إذا اعتدوا على المسلمين: على أنفسهم أو ديارهم أو عقيدتهم. أو بالقوة، بمعنى الاستعداد للقتال عند وجود أسبابه ودواعيه. وذلك يقتضي أن يُعِدَّ المسلمون لأعدائهم ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل، يرهبون به عدو الله وعدوهم.

وهذا الجهاد هو الذي يُفهم من اللفظ عند الإطلاق، وهو الذي عُنيت به كتب الفقه الإسلامي على اختلاف مذاهبه.

وهذا النوع من الجهاد تُعنى به الدول والحكومات ووزارات الدفاع، وتُرصد له الميزانيات الهائلة والأموال الطائلة، للإنفاق على القوّات المسلحة برًّا وبحرًا وجوًّا.

وهناك (**الجهاد الروحي**)، وهو جهاد ميدانه: النفس الإنسانية، وغرائزها ونوازعها، وهو الذي جاء فيه الحديث الشريف: «المجاهد مَن جاهد هواه»، أو «من جاهد نفسه في الله»[1]، وجاء فيه قوله تعالى في القرآن المكي: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وهو الذي يُعنى به رجال السلوك والتربية الرُّوحية من المتصوفة ومن رضي طريقهم، ويشمل نوعين من الجهاد: أولهما: هو **جهاد النفس**. وثانيهما: هو **جهاد الشيطان**. وكلاهما لازم للآخر. وقد تحدثنا عن كل منهما.

وهناك (**الجهاد الدَّعوي**)، وهو يعني: إيصال الدعوة، وتبليغ الرسالة إلى كل مَن لم تبلغه، بَدءًا بالأقرب فالأقرب، وهو المذكور في سورة الفرقان المكية: ﴿**فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا**﴾ [الفرقان: ٥٢]، أي: بالقرآن، وقد أُمر

(١) رواه ابن حبان عن فضالة بن عبيد، وقد سبق تخريجه صـ ٦٦.

الرسول ﷺ أن يبلِّغ ما أُنزل إليه من ربه، وأن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن يُجادل مخالفيه بالتي هي أحسن، كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ**﴾ [المائدة: ٦٧]، ﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ [النحل: ١٢٥]، والأمة مبعوثة بما بُعث به رسولها، وعليها أن تُبلِّغ دعوته إلى العالمين، وتتحمَّل في سبيل ذلك المشقة وأنواع البلاء، كما قال تعالى: ﴿**الم ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ**﴾ ... إلى أن يقول: ﴿**وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ**﴾ [العنكبوت: ١-٦]، فالجهاد هنا هو جهاد الصبر على مشاقِّ الدعوة وأعبائها وعقباتها.

ماهيَّة الجهاد المدني:

وهناك (الجهاد المدني)، وهو المقصود بالحديث هنا، ونعني به: الجهاد الذي يُلبِّي حاجات المجتمع المختلفة، ويُعالج مشكلاته المتنوِّعة، ويُغطِّي مطالبه المادية والمعنوية، وينهض به في سائر المجالات، حتى يتبوأ مكانته اللائقة به، وهو يشمل مجالات عدة: **المجال العلمي أو الثقافي، والمجال الاجتماعي، والمجال الاقتصادي، والمجال التعليمي والتربوي، والمجال الصحِّي والطبي، والمجال البيئي، والمجال الحضاري بصفة عامة.**

وهذا الجهاد لم يذكره الإمام ابن القيم في المراتب الثلاث عشرة للجهاد في (الهدي النبوي)، ولكنه جهاد تقوم عليه الأدلَّة الشرعية، من القرآن والسنة، كما يستند إلى مقاصد الشريعة.

وقد كنتُ تحدثتُ عن هذا (الجهاد المدني) في اجتماع مجلس أمناء (مؤسسة القدس) العالمية، الذي أتشرف برئاسته، وانتقد بعض الإخوة المشاركين: أننا لم نجعل (الجهاد) على رأس أهداف هذه المؤسسة المرجوَّة لنُصرة القدس، والمحافظة عليها. وهو يقصد الجهاد العسكري، بمعنى القتال، كما هو معهود.

ولقد رددتُ على الإخوة المنتقدين: أننا لا نعارض الجهاد، ولا نبخسه حقه، وهو أعظم ما يُتقرَّب به إلى الله، كما أنه الوسيلة الوحيدة التي تردع العدو الظالم

المتجبِّر، ولكننا نؤمن بالتخصُّص، فهناك جماعات ومؤسسات تختصُّ بالجهاد القتالي أو الجهاد العسكري، ندعو لهم بالتوفيق في مهمتهم الجليلة . . .

أما مؤسستنا فهي مؤسسة (مدنية)، وهي مُتخصِّصة في (الجهاد المدني)، الذي يعمل بكل قوة: تفكيرًا وتخطيطًا وتنفيذًا، للمحافظة على مؤسسات المجتمع المدني في القدس، وتفعيلها، وإمدادها بكل عناصر الحياة والقوة، حتى تُؤتي أُكلها كل حين بإذن ربها.

إن من واجب هذا الجهاد: أن يسعى جاهدًا - ببذل الجُهد، ويتحمُّل الجَهد - حتى يُعلِّم الجاهل، ويُشغِّل العاطل، ويُدرِّب العامل، ويُشبع الجائع، ويكسو العاري، ويُؤوي المشرَّد، ويداوي المريض، ويُوفِّر تمام الكفاية لكلِّ محتاج. يجب أن يسعى ليبني المدرسة التي تَسَع كل تلميذ، والجامعة التي تَسَع كل طالب، والمستشفى الذي يعالج كل مريض، والمسجد الذي يصلي فيه كل متعبد، والنادي الذي يمارس هوايته فيه كل مُحبٍّ للرياضة.

وقد سألني بعض الإخوة الحضور الذين أعجبوا بهذا المصطلح (الجهاد المدني): هل هذا المصطلح من ابتكارك؟ قلتُ لهم: أعتقد ذلك، فأنا لم آخذه عن أحد. قالوا: نلتمس منك أن تثبته واقعًا، وأن تؤصِّله شرعًا وفقهًا، حتى يشيع استعماله، ويُعرف بنسبته إليك.

قلتُ: ليس المهمُّ أن ينسب إليَّ أو إلى غيري، وإن كان علماؤنا يقولون: من بركة القول أن يُسند إلى قائله. ولكن المهمَّ هو فكرة (التأصيل الشرعي) لهذا الجهاد، الذي يشمل عدة ميادين، منها: ميدان الجهاد العلمي، وميدان الجهاد الاجتماعي، وميدان الجهاد الاقتصادي، وميدان الجهاد التعليمي، ومثله الصحي والطبي، وغيرها.

١- الجهاد العلمي:

إن القرآن الكريم يشير إلى هذا النوع من (الجهاد العلمي)، حين أرشد إلى ضرورة توزيع القوى الفاعلة المختلفة في المجتمع على الساحات العلمية والعملية التي تتطلَّب تجنيد القوى لخدمتها، والنهوض بمطالبها، وتحقيق أهدافها.

وذلك في قوله تعالى في سورة التوبة بعد أن تحدَّث طويلا عن المنافقين الذين تخلَّفوا عن رسول الله، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وقوله

تعالى بعد ذلك: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]، فقرَّر القرآن الكريم بهذه الآية: قاعدة عظيمة من قواعد المجتمع المسلم، وهي عدم تكديس القوى في جانب واحد، ونسيان الجوانب الأخرى، فرغم أهمية الجهاد العسكري لحماية الأمة ودينها - ولا سيما في العصر النبوي الذي وقفت كل القوى في الداخل والخارج ضده - لا ينبغي أن يستأثر بكل الطاقات والقوى الفاعلة، وترك الساحات الأخرى فارغة، مثل ساحة العلم والتفقُّه في الدين، الذي تحتاج إليه الأمة حاجة أساسية، حتى يكون عملها وجهادها مؤسَّسا على بصيرة في الدين.

وقد أشار القرآن إلى أنَّ السعي في طلب التفقُّه في الدين يعتبر ضربًا من الجهاد، ولهذا عبَّر عنه القرآن بقوله: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]، فاستخدم كلمة ﴿نَفَرَ﴾ التي تستعمل في الجهاد، مما يشير إلى أن الخروج إلى طلب العلم والتفقُّه فيه من ألوان الجهاد. وفي هذا جاء الحديث عن النبي ﷺ: «مَن خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع»[(١)].

٢- الجهاد الاجتماعي:

ومن مجالات هذا الجهاد: المجال الاجتماعي، الذي يتعلَّق برعاية الأسرة من الوالدين والأولاد والأرحام.

ومن الدلائل الشرعية على أصالة هذا الجهاد المدني في تراثنا الإسلامي: ما رواه الشيخان: البخاري ومسلم وغيرهما، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: جاء رجل إلى نبي الله يستأذنه في الجهاد، فقال: «أحيٌّ والداك؟». قال: نعم. قال: «ففيهما فجاهد»[(٢)].

---

(١) رواه الترمذي في العلم (٢٦٤٧)، وقال: حديث حسن غريب ورواه بعضهم فلم يرفعه، والطبراني في الصغير (١/ ٢٣٤)، عن أنس بن مالك، وحسنه الألباني لغيره في صحيح الترغيب والترهيب (٨٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٠٤)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٤٩)، كما رواه أحمد في المسند (٦٥٤٤)، وأبو داود (٢٥٢٩)، والترمذي (١٦٧١)، والنسائي (٣١٠٣)، ثلاثتهم في الجهاد، عن عبد الله بن عمرو.

وفي هذا الجواب النبوي لطالب الجهاد: «ففيهما فجاهد». إرشادٌ إلى أنَّ رعاية الوالدين، وخصوصًا في حالة الكِبَر، وحاجتهما إلى مَنْ يقوم بأمرهما: هو لون من الجهاد المدني المطلوب في مقابل ما طلبه السائل من الجهاد العسكري.

ومَن راجع السنة النبوية: وجد فيها عددًا من الأحاديث تؤكد هذا المعنى، وهو: اعتبار الرعاية الأُسْرية لونًا من الجهاد الذي يُحقِّق لصاحبه الأجر من الله، الذي يستحقُّ به نفس أجر الجهاد، ويُهيِّئ له العذر في التخلُّف عن الجهاد.

ففي إحدى روايات صحيح مسلم للحديث السابق، أقبل رجلٌ إلى نبيِّ الله ﷺ، فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد، أبتغي الأجر من الله. قال: «فهل من والديك أحد حي؟». قال: نعم، بل كلاهما. قال: «فتبتغي الأجر من الله؟». قال: نعم. قال: «فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما»(١).

وروى الطبراني وغيره، عن أنس بن مالك، قال: أتى رجلٌ النبيَّ ﷺ فقال: إني أشتهي الجهاد، ولا أقدر عليه. قال: «هل بقي من والديك أحد؟». قال: أمي. قال: «فاتَّقِ الله في برِّها، فإذا فعلتَ ذلك، فأنت حاج ومعتمر ومجاهد»(٢).

وعن معاوية بن جاهمة: أن جاهمة جاء إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، أردتُ أن أغزو، وقد جئتُ أستشيرك؟ فقال: «هل لك من أم؟». قال: نعم. قال: «الزمها، فإن الجنة عند رجلها»(٣).

ومما يدخل في هذا السياق ما وجَّه نبيُّ الإسلام الأمة إليه من خلافة المجاهد المقاتل في أهله وأسرته بخير، بحيث يُلبِّي مطالبهم، ويصون حرماتهم، ويسدُّ

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٤٩)، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) رواه أبو يعلى في المسند (٥/ ١٤٩)، والطبراني في الصغير برقم (٢١٨)، والأوسط برقم (٢٩١٥)، عن أنس، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أبو يعلى والطبراني في الصغير والأوسط ورجالهما رجال الصحيح، غير ميمون بن نجيح، ووثقه ابن حبان (٨/ ٢٥٥)، وقال العراقي في تخريج الإحياء: إسناده حسن (٢/ ١٩٣).

(٣) رواه أحمد في المسند (١٥٥٣٨)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن، والنسائي (٣١٠٤)، وابن ماجه (٢٧٨١)، كلاهما في الجهاد، وابن أبي شيبة في الأدب (٢٥٩٢٠)، والطبراني في الكبير (٨/ ٣١١)، والحاكم في الجهاد (٢/ ١٠٤)، وصحَّح إسناده، ووافقه الذهبي، عن معاوية بن جاهمة.

ثغراتهم، ويعينهم على طلباتهم، ويُذلِّل مصاعبهم، ويُخفِّف عنهم متاعبهم. وهو ما نبَّه عليه رسول الله ﷺ في حديثه: «مَنْ خلف غازيًا في أهله بخير فقد غزا»[1]. فليس الغازي مَن يحمل السلاح فقط، بل مَن خلف الغازي في أسرته، وكان لأبنائه أبًا، فهذا له عند الله أجر الغازي ومثوبته، لأنه في هذه الحالة يجاهد ويقاتل وهو مطمئن القلب، مستريح الضمير، إلى أنَّ أسرته لن تضيع من بعده، بل المجتمع كله في خدمتها ورعايتها والاستجابة لحاجاتها، عن طواعية وأريحية ورضا، من غير تكلُّف ولا افتعال.

وفي هذه الأحاديث يفتح النبيُّ ﷺ، للراغبين في الجهاد العسكري: بابًا آخر - بل أبوابًا أُخر - بديلاً عن هذا الجهاد، وهو ما سمَّيناه (الجهاد المدني).

وبهذا التوجيه النبوي، علَّم الرسول الكريم أصحابه: أن يفتحوا أعينهم على ميادين كثيرة، يستطيعون أن يجاهدوا فيها بغير السيف والرمح وأسلحة القتال، منها: ما ذكرنا هنا، وهو ما يتعلَّق بالجهاد الاجتماعي.

٣- الجهاد الاقتصادي:

وهناك من (الجهاد المدني): ما يتعلق بالجهاد الاقتصادي، وهو السعي لكسب الرزق، والمشي في مناكب الأرض الذلول، والأكل من رزق الله فيها.

فقد روى كعب بن عُجْرة رضي الله عنه، قال: مرَّ على النبي ﷺ رجل، فرأى أصحابَ رسول الله من جَلَده ونشاطه، فقالوا: يا رسول الله، لو كان هذا في سبيل الله! (أي في الجهاد)، فقال رسول الله ﷺ: «إن كان خرج يسعى على ولده صغارًا، فهو في سبيل الله! وإن كان يسعى على أبوين شيخين كبيرين، فهو في سبيل الله! وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفُّها، فهو في سبيل الله! وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة، فهو في سبيل الشيطان!»[2].

---

(١) متفق عليه من حديث زيد بن خالد، وقد سبق تخريجه صـ١٢١.

(٢) رواه الطبراني في الصغير (٩٤٠)، والأوسط (٦٨٣٥)، والكبير (١٢٩/١٩)، عن كعب ابن عُجْرة، وقال المنذري في الترغيب: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح (٣٣٥/٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الثلاثة (أي معاجمه الثلاثة) ورجال الكبير رجال الصحيح (٥٩٦/٤).

فانظر كيف قال الصحابة، حين رأوا هذا الرجل تبدو عليه مظاهر القوة والجَلَد والنشاط، فتمنَّوا أن يكون ذلك في سبيل الله، أي في الجهاد العسكري، فقد كان أكبر همِّهم أن يوفِّروا كل القوى لمواجهة الأعداء الذين يتربَّصون بهم الدوائر، ويكيدون كيدهم ليقتلعوا جذورهم. ولكن النبيَّ ﷺ فتح لهم آفاقًا جديدة في توسيع مفهوم الجهاد، الذي لا ينبغي أن يُحْصَرَ في الجانب القتالي وحده، فبيَّن لهم بعبارة واضحة: أنَّ الذي خرج يضرب في الأرض، ويلتمس الرزق في خباياها، مبتغيًا من فَضْل الله، إن كان خرج يسعى ليعول أولادًا صغارًا، أو يعول أبوين شيخين كبيرين، أو حتى إن كان خرج يسعى على نفسه، ليعفَّها عن سؤال الناس، ويكفيها بالحلال، فهو «في سبيل الله». ومعنى «في سبيل الله»: أي في جهاد مُعْتَبَر في نظر الشرع، يتقرب به صاحبه إلى الله.

إنَّ الذي ركَّز عليه الرسول الكريم هو النيَّة والباعث والهدف من وراء هذا السعي والنشاط، فما دام الساعي يسعى لتوفير الحاجات الاقتصادية المشروعة للمجتمع أو للأسرة أو حتى لنفسه، فهو في سبيل الله، أي: في جهاد مقبول ومحمود، وإن كان هدفه مدخولا، وقد شابته شوائب الرياء والعلو في الأرض، والتكاثر والتفاخر، فقد خرج من دائرة الجهاد في سبيل الله، ليمضي في سبيل آخر، هو سبيل الشيطان.

الجهاد الاقتصادي إذن هو فرع من الجهاد المدني، وكل عمل ينهض باقتصاد المجتمع، وينقله من دائرة الاستهلاك إلى الإنتاج، ومن الاستيراد إلى التصدير، ومن التبعية إلى الاستقلال والاكتفاء الذاتي، فهو لون من الجهاد المدني المنشود.

ومما جاءت به السنة النبوية: التنويه بالتكامل الاقتصادي، والتحذير من الاكتفاء ببعض مقومات الاقتصاد، وإهمال البعض الآخر، مثل الاكتفاء بالزراعة دون الصناعة وغيرها، مما يعرِّض كفاية الأمة للخطر، وهو ما جاء به حديث ابن عمر مرفوعا: «إذا تبايعتم بالعِينة، ورضيتم بالزرع، وتبعتم أذناب البقر، وتركتم الجهاد في سبيل الله، سلَّط الله عليكم ذُلاً لا ينزعه عنكم حتى تراجعوا دينكم»[1].

(١) رواه أحمد في المسند (٥٠٠٧)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف، وأبو داود في الإجارة (٣٤٦٢)، والبيهقي في الكبرى كتاب البيوع (٥/٣١٦)، عن ابن عمر، وصححه الألباني في صحيح الجامع =

والتبايع بالعِينة: صورة من صُور التحايل على أكل الربا، فهو بيع صورة، ربا حقيقة، والرضا بالزرع، واتباع أذناب البقر: يُوحي بالمجتمع الزراعي المحض، الذي لا يفكر في تكميل اقتصاده بالصناعات والحِرَف المختلفة، والذي لا يكون كل همِّ أفراده إلا أن يتَّبعوا أذناب أبقارهم، ولا يهتمُّوا بشأن الأمة ورسالتها وتفوُّقها، ولهذا تركوا الجهاد في سبيل الله، لأنَّ همَّ كل واحد منهم مصالح نفسه، لا هموم أمته. فلا عجب أن يُسلِّط الله عليهم «ذلاً» لا يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم، ويفهموه حقَّ فهمه، بشموله وتكامله، ويعملوا به، ويعملوا له.

٤- الجهاد التربوي:

وهناك (الجهاد التربوي) بإنشاء المدارس التي تُعلِّم المسلمين ما يحفظ عليهم هُويَّتهم، ويبقي عليهم انتماءهم، ويغرس في قلوبهم وعقولهم حبَّ دينهم وأمَّتهم ووطنهم، حتى لا يُفرِّطوا في أيِّ شيء منها، وإتاحة الفرصة للنابهين منهم، حتى يرتقوا إلى أعلى درجة في سُلَّم التعلُّم، وهذا الجهاد التربوي ضرورى لصنع الأمة القادرة على حمل رسالتها المتميِّزة لنفسها وللعالم. وما لا يتمُّ الواجب إلا به فهو واجب.

٥- الجهاد الصحي:

وهناك (الجهاد الصحي) ببناء المستشفيات والمراكز الصحية، التي تتيح العلاج لكلِّ مريض، وتعمل على رفع مستوى الصحَّة في المجتمع، ونشر الوعي الصحي والوقائي، فدرهم وقاية خير من قنطار علاج، كما قال الحكماء، وكما قالوا أيضًا: العقل السليم في الجسم السليم.

وفي الحديث الصحيح: «**فرّ من المجذوم فرارك من الأسد**»[1] وفي حديث آخر: «**من يتوق الشر يوقه**»[2].

= (٤٢٣)، والحديث قوَّاه ابن القيم في (تهذيب سنن أبي داود)، ورمز السيوطي لحسنه في (الجامع الصغير) وتعقبه المناوي، قال ابن حجر: وسنده ضعيف، وله عند أحمد إسناد آخر أمثل من هذا. وقال الشيخ شاكر: إسناده صحيح.

ومن المعروف أن نهج الشيخ شاكر هو التساهل في التوثيق والتصحيح، وقد خالفه الشيخ شعيب وزملاؤه، فحكموا بضعف الحديث لانقطاعه. فعطاء لم يسمع من ابن عمر، وإنما رآه رؤية. وأبو بكر - هو ابن عياش - لما كبر ساء حفظه. انظر: المنتقى من الترغيب والترهيب (٧٥٦).

(١) رواه أحمد فى المسند (٩٧٢٢) وقال مُخرجوه: حديث صحيح، وعلَّقه البخارى (٥٧٠٧)، قال: وقال عفان. والبيهقى فى النكاح (٧/ ١٣٥)، عن أبى هريرة.

(٢) رواه البيهقى فى الشعب باب الزهد (١٠٧٣٩) موقوفًا على أبى الدرداء، ورُوِي مرفوعًا، ولكنه ضعيف.

٦- الجهاد البيئي:

وهناك (الجهاد البيئي) الذي يحافظ على سلامة البيئة وحمايتها من كلِّ تلوث أو ضرر يصيبها، وينتج الخلل والاضطراب في الحياة، بل قد يفسد الحرث والنسل، والله لا يحبُّ الفساد، ورعاية البيئة وحمايتها من أخطار التلوُّث والاختلال: جزء من تعاليم الإسلام.

وقد ألَّفت كتابًا كاملاً في (رعاية البيئة في شريعة الإسلام) أثبتُّ فيه بالأدلة الشرعية من القرآن والسنة، ومن تراث الأمة، سَبْق الإسلام بالعناية البالغة بالبيئة وكل مكوناتها، بوسائل شتى، منها: التشجير والتخضير، والبناء والتعمير، والتنظيف والتطهير.

ويكفي في ذلك قوله تعالى: ﴿**وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا**﴾ [الأعراف: ٥٦] وقوله صلى الله عليه وسلم: «**من قطع سدرة** (شجرة سدر في الصحراء) **صوَّب الله رأسه في النار**»[(١)].

وقوله: «**من قتل عصفورًا عبثًا، عجَّ إلى الله يوم القيامة، يقول: يا رب إن فلانا قتلني عبثا، ولم يقتلني منفعة**»[(٢)].

وقوله: «**لا يبولنَّ أحدكم في الماء الدائم**»[(٣)].

إلى آخر التوجيهات الإسلامية الكثيرة المتوافرة في هذا المجال[(٤)].

***

(١) رواه أبو داود في الأدب (٥٢٤١)، والنسائي في الكبرى في السير (٨٦١١)، عن عبد الله بن حُبْشي، وصححه الألباني في الصحيحة (٦١٤).

(٢) رواه أحمد في المسند (١٩٤٧٠)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف لجهالة حال صالح بن دينار، والنسائي في الضحايا (٤٤٤٦)، وفي الكبرى كتاب الضحايا (٤٥٢٠) عن عمرو بن الشريد، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٥٧٥١).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الوضوء (٢٣٩)، ومسلم في الطهارة (٢٨٢)، كما رواه أحمد في المسند (٧٦٠٣)، وأبو داود (٦٩)، والترمذي (٦٨)، كلاهما في الطهارة، عن أبي هريرة.

(٤) انظر: كتابنا (رعاية البيئة في شريعة الإسلام) نشر دار الشروق بالقاهرة.

الجهاد في نظر المستشرقين

هذا الذى شرحناه في تعريف حقيقة الجهاد، وأنه يشمل عدَّة مراتب وأنواع، من جهاد نفس، وجهاد دعوي، وجهاد مدنى، وجهاد للظلمة، وجهاد للأعداء، اختزل هذا كله المستشرقون في أبحاثهم ودراساتهم (الأكاديمية) عن الجهاد في الإسلام في كلمة موجزة، هي: (نشر الإسلام بالسيف)، كما عبَّرت ذلك عنهم (دائرة المعارف الإسلامية)، التي كتبها المستشرقون، وترجمت إلى العربية، وقد كتب مادة (الجهاد) فيها أحد المستشرقين المعروفين، وهو (ماكدونالد) الذى قال تحت عنوان الجهاد: (نشر الإسلام بالسيف فرض كفاية على المسلمين كافَّة. وكاد الجهاد أن يكون ركنًا سادسًا من أركان الدين، أو فرض عين، ولا شكَّ أنه صار كذلك عند سلالة من الخوارج...)[1].

ولا أدري ماذا يقصد الكاتب بـ(سلالة الخوارج)؟ هل يقصد ورثة (الحروريَّة) الذين قاتلوا عليَّ بن أبي طالب وقاتلهم، وهم الذين قاتلوا الأمويين، ثم العباسيين بعدهم، وامتشقوا السلاح دفاعًا عن عقائدهم وأفكارهم؟ وهؤلاء لم يكن همهم نشر دين الإسلام بالسيف، كما يقول كاتب مادة (الجهاد). بل كان أكبر همِّهم قتال الأمراء الظالمين، بل الكافرين في رأيهم، ولم يتفرَّغوا لنشر الإسلام لدى الأمم الأخرى، فيما نعلم. وقد جعلت الأحاديث الصحاح من أخصِّ أوصافهم: أنهم «**يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان**»[2].

أو يقصد سلالة الخوارج الذين ورثوا فقههم وتراثهم العلمي، مثل (الإباضية) الذين يحكمون سلطنة عمان، ولهم وجود في الجزائر وبعض بلاد شمال إفريقيا، وفى زنجبار.

ومَن اطَّلع على كتب هؤلاء المعروفة والمنشورة، لم يجد أن الجهاد يعد ركنًا من أركان الإسلام عندهم[3]. والله أعلم.

وسنناقش بتفصيل فكرة نشر الإسلام بالسيف، وأنها فرية ما فيها مرية. وذلك في الفصل الخامس الباب الرابع من هذا الكتاب.

---

(١) انظر: دائرة المعارف الإسلامية المترجمة، مادة (جهاد) صـ ٢٧٧٨.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤٤)، ومسلم في الزكاة (١٠٦٤)، كما رواه أحمد في المسند (٥٥٦٢)، وأبو داود (٤٧٦٦)، والنسائي (٢٥٧٨) كلاهما في الزكاة، عن أبى سعيد الخدري.

(٣) انظر: كتاب الجامع لأبي محمد عبد الله بن محمد بن بركة البهلوي العماني، تحقيق عيسى يحيى الباروني، (٢/ ٤٨٣- ٤٩٤).

الفصل الثامن

مرتبة الجهاد العسكري
أو (تطوُّر الجهاد من الدعوة إلى القتال)

قتال أعداء الأمة:

هذا الفصل يتحدَّث عن (الجهاد العسكري) أي: الجهاد بمعنى القتال، وهو الجهاد الموجَّه إلى أعداء الأمة، الذين يعتدون على دينها، وعلى أرضها، وعلى أهلها. ويلزم الأمة أن تردَّ عدوانهم، مدافعةً عن حرماتها ومُقدَّساتها، والشرُّ بالشرِّ يحسم، والبادئ أظلم. وهذا هو الذي غدا يُفهم من كلمة (الجهاد) عند إطلاقها، وهو قتال الأعداء.

وفي هذا جاء قول الله تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ**﴾ [البقرة: ١٩٠-١٩٣].

وهذا هو الجهاد (أي القتال) الذي تحدَّثنا في الباب الأول عن حكمه، سواء كان جهاد طلب أم جهاد دفع: متى يكون فرض كفاية، وما معنى الكفاية؟ وكيف تَتَحقَّق؟ ومتى تكون فرض عين؟ وكيف يَتحقَّق فرض العين؟ وهو المقصود بالذات في كتابنا هذا، لما يحوط به من لَبْس وتخليط كثير، يجب على أهل العلم أن يزيلوه، حتى يتبيَّن للناس الحقُّ واضحًا جليّاً، ليكون المسلم على بيِّنة من ربِّه، وبصيرة من دينه.

تطور الجهاد في عهد النبوة:

وقد تطوَّر الجهاد في عهد النبوة من طور إلى طور، حتى وصل إلى طور الأمر بالقتال لمواجهة الأعداء الذين لا يريدون لهذا الدين أن يمتدَّ نوره في الآفاق. وسنبيِّن ذلك في الصفحات التالية.

لقد نزل الوحي الإلهي على محمد ﷺ، وهو على رأس الأربعين من عمره، وأقرأه الروح الأمين جبريل الآيات الأولى من القرآن الكريم: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ**

﴿الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١- ٥].

كان هذا الوحي مفاجأة لمحمد بن عبد الله ﷺ، لم يكن يرجوه ولا يتوقَّعه، فرجع إلى بيته يرجف فؤاده، حاكيًا لزوجه خديجة ما وقع له، خائفًا منه، وزوجه تطمئنه وتقول له: والله لا يُخْزيك الله أبدا. ثم أخذته إلى ابن عمها وَرَقَة ابن نَوْفَل، وكان ممَّن اطَّلع على كتب أهل الكتاب من قبل. فقال له: لا تخف، هذا الناموس الذي أنزله الله على موسى. وليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك فأنصرك! قال: «أو مُخْرجي هم؟». قال: ما جاء أحد قط بمثل ما جئت به إلا عُودي[1].

أراد الرجل الخبير بالنبوات السابقة وأنبيائها: أن يُهيِّئ نفسيَّة هذا النبي الجديد لما ينتظره من ألوان الإيذاء من المشركين من قومه، بمجرَّد أن يُعلن دعوته، فهذه سُنة الله التي لا تَتَخلَّف. وقابل محمد عليه السلام مقولةَ الرجل، وما تحمل من صراع منتظر، باستغراب الإنسان البريء المخلص، الذي يعجب: لماذا يعاديه قومه ويخرجونه؟!

وبهذا عرَف محمد عليه الصلاة والسلام: أنَّ طريق الدعوة طريق طويل محفوف بالمكاره، وأنه يحتاج إلى ألوان من الجهاد المتنوِّع، وأنه لا بد أن يمر بأطوار مختلفة ينبغي لنا إلقاء الضوء عليها في الصحائف التالية:

١- طور الإنذار والتبليغ بالدعوة الفردية:

ثم نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر: ١-٧]، الآيات من سورة المدثر.

فشرع ينذر أقرب الناس إليه، ويُبلِّغهم رسالة ربه، فآمن به السابقون الأولون: أبو بكر من الرجال، وعليٌّ من الصبيان، وزيد بن حارثة من الموالي، بعد خديجة التي كانت أول مَن آمن به على الإطلاق.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٩٥٣)، ومسلم في الإيمان (١٦٠)، كما رواه أحمد في المسند (٢٥٨٦٥)، عن عائشة.

ودخل بدعوة أبي بكر عدد من السابقين: عثمان بن عفان، وعبد الرحمن ابن عوف، وأبو عبيدة بن الجرَّاح، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص.

وبدأ الإسلام ينتشر بالدعوة الفردية، دون ضجيج ولا إعلان بين القليلين من أهل مكة. ودعا رسول الله ﷺ أهله وعشيرته من بني عبد مناف، استجابةً لأمر الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤][1].

ويسمِّي بعضهم هذه المرحلة: مرحلة (الدعوة السرية)، والواقع أنها لم تكن سرية بمعنى أنها لا تعلن عن نفسها، ولكنها قامت على الدعوة الفردية الهادئة.

٢- طور جهاد الدعوة الكبير في العهد المكي:

وبعد ثلاث سنوات من بدء الوحي، أرادَ عليه السلام أن يُبلِّغ الجماعة دعوته جِهارًا، كما أمره الله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤].

وجمعهم عند الصفا، وبلَّغهم أنه رسول الله إليهم خاصَّة، وإلى الناس كافة، وهزأ به عمه أبو لهب، وقال له: تبّاً لك! ألهذا جمعتنا؟! ونزل فيه وفي زوجه قول الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ① مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ② سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ③ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ④ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: ١-٥][2].

وبدأت المعركة مع قريش، وهي معركة غير متكافئة، رسول الله وأصحابه القليلون، ليس معهم غير القرآن، يتلونه ويُبلِّغونه، وقريش معها القوة والبطش والجبروت والإيذاء.

ظلَّ الرسول الكريم يجاهدهم بالقرآن، يتلو عليهم آياته، ولا سيما الآيات التي تهدِّدهم وتردُّ عليهم، وتهاجم باطلهم وطغيانهم، مثل سورة الهمزة: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ① الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ② يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ [الهمزة: ١- ٣]،

---

(١) هذا هو المشهور في كتب السيرة، ولكن الذي يتأمَّل في هذه الآية من سورة الشعراء: يجد أنها لم تنزل إلا بعد مدَّة من الزمن، فلا ضرورة لربط تبليغ عشيرته بدعوته، بهذه الآية خاصَّة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الجنائز (١٣٩٤)، ومسلم في الإيمان (٢٠٨)، كما رواه أحمد في المسند (٢٥٤٤)، والترمذي في تفسير القرآن (٣٣٦٣)، عن ابن عباس.

ومثل ما جاء في سورة القلم: ﴿ فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (٨) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩) وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾ [القلم: ٨-١٣]، وفي آخر السورة نفسها: ﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥]. وما جاء في سورة المدثر: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴾ [المدثر: ١١-١٤]. وما جاء في سورة المزمل: ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً (١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [المزمل: ١١-١٣].

والمشركون إزاء هذه الحملات القرآنية لا يجدون حُجَّة إلا أن يصبُّوا سياط العذاب على المؤمنين، فكانوا يأتون إلى النبي ﷺ ما بين مضروب ومجروح ومشجوج، يشكون إليه ما أصابهم من إيذاء المشركين وظلمهم، ويسألونه أن يأذن لهم في الدفاع عن أنفسهم بما يقدرون عليه من سلاح، فيقول لهم: «**كفُّوا أيديكم وأقيموا الصلاة**»[1]. كما حكى القرآن بعد ذلك.

وحين اشتدَّ الأذى بالمسلمين من أصحاب النبي، أذن لهم أن يهاجروا إلى الحبشة، حتى يأتي الله بالفرج.

فهاجر المسلمون مرتين إلى الحبشة، ووجدوا في جوار ملكها (النجاشي) النصراني: الحمايةَ والأمنَ، حتى إنَّ النجاشيَّ كان عند حُسْن الظنِّ به، فرفض طلب قريش تسليم المهاجرين من أصحاب محمد لها.

وبعد ثلاثة عشر عامًا من الدعوة والبلاغ، والإيذاء والاحتمال، نزل فيها نحو ثمانين سورة من القرآن، وحُوصر المسلمون فيها لمدة ثلاث سنوات، قُوطعوا فيها اقتصاديًّا واجتماعيًّا، حتى أكلوا أوراق الشجر من شدة الجوع: أذن الله لرسوله

(١) رواه النسائي (٣٠٨٦)، والحاكم (٢/٦٦)، وصححه على شرط البخاري، ووافقه الذهبي، كلاهما في الجهاد، والبيهقي في الكبرى كتاب السير (٩/١١)، عن ابن عباس، وصحح الألباني إسناده في صحيح النسائي (٢٨٩١)، ونصه: أن عبد الرحمن بن عوف وأصحابا له أتوا النبي صلى الله عليه وسلم بمكة، فقالوا: يا رسول الله، إنا كنا في عز ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة. فقال: «إني أمرت بالعفو، فلا تقاتلوا». فلما حولنا الله إلى المدينة، أمرنا بالقتال، فكفوا فأنزل الله عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ ﴾ الصَّلاةَ [النساء: ٧٧].

وأصحابه بالهجـرة إلى يثرب، التي سمِّيت بعدُ (المدينة)، ليتـأسس فيها أول (دار للإسلام) يأوي إليها كل مَن دخل في هذا الدين، وتقوم فـيها لهذه الدعوة (دولة) تنصرها وتُمكِّن لها في الأرض، وتذود عن حِماها كل مَن يعـتدي عليها ويصدُّها عن سبيلها، يقود هذه الدولة الفتيَّة، حاملة رسالة الهداية للبشر: رسول الله ﷺ.

كان جهـاد الرسول ﷺ وجهاد أصحـابه، خلال هذه الفترة المكيـة: هو جهاد الدعوة والتـبليغ لما أنزل إليه من ربه من الـقرآن، يُعلِّم به مَن جهل، ويُـنبِّه به مَن غفل، ويُذكِّر به مَن نسي، ويهدي به مَن ضل، كما قال تعالى: ﴿ **فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ** ﴾ [ق: ٤٥]، ﴿ **فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ** ﴾ [الغاشـية: ٢١، ٢٢]، ﴿ **وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الذاريات: ٥٥]، ﴿ **وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** ﴾ [الكهف: ٢٧-٢٩].

وكان القرآن - بحججه وبيناته وتبشيره وإنذاره - يُؤثِّر في المشركين إذا أنصتوا له واستمعوا إليه، لما يحسُّون به من حلاوة، وما يجدون عليه من طلاوة، وما يلمحون به من نورانية غير معهودة، لذا كانوا يجتهدون أن يُشوِّشوا عليه، وأن يمنعوا نساءهم وفتيانهـم من سماعه: ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ** ﴾ [فصلت: ٢٦]، وقال: ﴿ **كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ** ﴾ [فصلت: ٣-٥].

كان جهاد الرسول وصحبه في هذه المرحـلة جهادًا بالقرآن، كما جاء في سورة الفرقان عن القرآن: ﴿ **وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا** ﴾ [الفرقان: ٥٠-٥٢]. والضمير في قوله: ﴿ **وَجَاهِدْهُم بِهِ** ﴾، يعود للقرآن، المذكور قبله في قوله: ﴿ **وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا** ﴾ فسمَّته الآية جهادًا، بل جهادا كبيرًا.

٣- طور جهاد الصبر على الأذى ومنع القتال:

وكان هناك جهاد آخر للرسول وأصحابه مصاحبٌ لجهاد الدعوة والتبليغ، هو جهاد الصبر والمصَابَرة على ما أصابهم من لأواء وبلاء وأذى وعذاب، خلال هذه الفترة القاسية، من فتنة للمؤمنين، وتعذيب للمستضعفين، وحصار وتجويع، واضطرار إلى الهجرة، كما أشرنا إلى ذلك. وهو ما نزل فيه قوله تعالى في أوائل سورة العنكبوت: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا أَن يَقُولُوٓا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١- ٦].

كان هذا هو جهاد الرسول وأصحابه في هذا الطَّور، ولم يؤذن لهم بأي جهاد عسكري (قتالي)، ولم يكن من الحكمة أن يسمح لهم بأن يدخلوا مع قومهم معركة غير متكافئة، بل هي في الحقيقة (معركة فناء)، يلقون فيها بأيديهم إلى التهلكة، نتيجة الغضب والاستعجال، ودخول الحرب قبل الأوان.

ولهذا أمر الله رسوله بالصبر في آيات كثيرة من القرآن المكِّي، مثل قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٩].

وقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧].

وقوله سبحانه: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠].

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وما خوطب به رسول الله ﷺ، هو بالتالي مُوجَّه إلى أمَّته، لتتأسَّى به، وتتحلَّى كما يتحلَّى بالصبر الجميل، حتى يأتي وعد الله[1].

(١) انظر: كتابنا (الصبر في القرآن الكريم) نشر مكتبة وهبة بالقاهرة.

٤- طوْر الإذن بالقتال:

ثم كانت الهجرة إلى المدينة، وانتقل الجهاد من صورته المكية، إلى صورة أخرى: صورة الصدام المسلح، الذي فُرض على الرسول والمسلمين فرضًا، وهم كارهون له، ولكنهم مضطرون إليه، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

أول آية نزلت في القتال:

كانت مشروعية القتال أول الأمر في صورة إذن من الله تعالى لرسوله والمؤمنين، بعد الحظر الذي كان مفروضًا عليهم من الله تعالى، حين كانوا مأمورين أن يكفُّوا أيديهم، ويكتفوا بإقامة الصلاة وعبادة الله.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما خرج النبي ﷺ من مكة، قال أبو بكر: أخرجوا نبيَّهم! إنا لله وإنا إليه راجعون! ليهلكنَّ، فنزلت: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].

قال: فعرَفت أنها ستكون. قال ابن عباس: فهي أول آية نزلت في القتال[(١)].

وقد رُوي عن بعض مُفسِّري السلف: أنَّ أول ما نزل في القتال: قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

ترجيح رواية ابن عباس:

ولكن رواية ابن عباس هنا مقدَّمة من عدة أوجه:

أولاً: أن سندها صحيح، فإن آفة أكثر ما ورد من روايات السلف في التفسير: أنه غير صحيح السند، وهذا لا يدقِّق فيه الكثيرون.

ثانيًا: أنها عن ابن عباس، وهو ترجمان القرآن، والمقدَّم على غيره في التفسير[(٢)].

---

(١) رواه أحمد في المسند (١٨٦٥)، وقال مُخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، والترمذي في التفسير (٣١٧١)، وقال: حديث حسن، والنسائي في الجهاد (٣٠٨٥)، وابن حبان في السير برقم (٤٧١٠)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، والطبراني في الكبير (١٢/١٦)، والحاكم في الجهاد (٢/٦٦)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، والبيهقي في الكبرى كتاب السير (٩/ ١٠)، عن ابن عباس.

(٢) كذا في هذه الرواية، وقال الحافظ ابن حجر: حقه أن يذكر في مسند أبي بكر من رواية ابن عباس عنه. النكت الظراف (٥٦١٨).

ثالثًا: أنها أقرب إلى المنطق، فإنها اشتملت على الإذن بالدفاع بعد الحظر، وآية البقرة فيها الأمر بالقتال، والمعقول أن يكون الإذن والإباحة أولا، ثم يكون الأمر بعد ذلك.

رابعًا: أن الرواية تقول: إن الآية نزلت عقب خروج النبي من مكة، أما آية: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ من سورة البقرة، فلا شك أنها نزلت بعد ذلك، بعد استقرار الجماعة الإسلامية في المدينة، وبعد أن وقع منهم ما وقع في الشهر الحرام. فالمعقول أن تكون آية سورة الحج قبل آية سورة البقرة.

وقول ابن عباس: إنَّ أول آية نزلت في القتال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ﴾ لا يعني أنها (آية واحدة)، فالحق أنها (آيات ثلاث) متَّصلة نزلت في سياق واحد مترابط. وتتمتها: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

وعلَّق العلامة رشيد رضا على هذه الآيات، وهو بصدد بيان أحد مقاصد القرآن، وهو ما جاء به من إصلاح وتجديد في شأن (الحرب)، وما شرعه من قواعد وأحكام، لضبط أمرها، حتى تقوم - إذا كان لا بد منها - على أحكم قوانين العدل والرحمة. فقال رحمه الله في بيان (القاعدة الثانية في الغرض من الحرب ونتيجتها): (وهي أن تكون الغاية الإيجابية من القتال - بعد دفع الاعتداء والظلم واستتباب الأمن - حماية الأديان كلها، وعبادة المسلمين لله وحده، ومصلحة البشر، وإسداء الخير إليهم، لا الاستعلاء عليهم والظلم لهم، مستدلاً بهذه الآيات من سورة الحج: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ...﴾ الآيات الثلاث.

وذكر في تعليل إذنه لهم بالقتال المذكور ثلاثة أمور:

أولها: كونهم مظلومين معتدًى عليهم في أنفسهم، ومخرَجين نفيًا من أوطانهم وأموالهم لأجل دينهم وإيمانهم، وهذا سبب خاص بهم بقسميه الشخصي والوطني، أو الديني والدنيوي.

ثانيها: أنه لولا إذن الله للناس بمثل هذا الدفاع لَهُدِّمت جميعُ المعابد التي يذكر فيها اسمَ الله تعالى أتباعُ الأنبياء، كصوامع العُبَّاد وبِيَع النصارى وصلوات اليهود (كنائسهما) ومساجد المسلمين، بظلم عبَّاد الأصنام ومنكري البعث والجزاء، وهذا سبب ديني عام صريح في حرية الأديان في الإسلام، وحماية المسلمين لها ولمعابد أهلها، وكذلك كان.

ثالثها: أن يكون غرضهم من التمكُّن في الأرض والحكم فيها: إقامة الصلاة المزكية للأنفس بنهيها عن الفحشاء والمنكر كما وصفها تعالى، والمربِّية للأنفس على مراقبة الله وخشيته ومحبته، وإيتاء الزكاة المُصْلحة للأمور الاجتماعية والاقتصادية، والأمر بالمعروف الشامل لكلِّ خير ونفع للناس، والنهي عن المنكر الشامل لكل شرٍّ وضرٍّ يلحق صاحبه أو غيره من الناس)[1].

٥- طور الأمر بالقتال:

وبعد أن كان القتال مجرَّد شيء (مأذون به) للمسلمين، بعد أن كان محظورًا عليهم في العهد المكي: أصبح (مأمورًا به) من الله عز وجل، أي أصبح فريضة عليهم، كما جاء في سورة البقرة قوله تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ**﴾ [البقرة: ١٩٠-١٩٤].

فهذه الآيات تأمر المؤمنين بالقتال، وتُحرِّضهم عليه، وتُذكِّرهم بالدوافع والمبرِّرات التي تحفزهم على قتال هؤلاء، وتضع له الضوابط الشرعية والأخلاقية.

(١) انظر: تفسير المنار (١١/ ٢٧٩، ٢٨٠)، وكتاب (الوحي المحمدي) صـ٢٣٧ للشيخ الإمام محمد رشيد رضا. مكتبة القاهرة الطبعة السادسة ١٩٦٠م.

وأول هذه الدوافع والمبرِّرات: أنهم هم الذين يقاتلون المسلمين: ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ**﴾ [البقرة: ١٩٠].

وثانيها: أنهم الذين أخرجوا المسلمين من ديارهم بغير حق: ﴿**وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ**﴾ [البقرة: ١٩١].

وثالثها: أنهم هم الذين يفتنون المسلمين عن دينهم بالإيذاء والتعذيب والتنكيل: ﴿**حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ**﴾ [البقرة: ١٩٣]، ﴿**وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ**﴾ [البقرة: ١٩١].

ورابعها: أنهم لا يبالون بالحرمات المقدسة، سواء حرمة المكان: ﴿**الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾ [البقرة: ١٩١]، أم حرمة الزمان: ﴿**الشَّهْرُ الْحَرَامُ**﴾ [البقرة: ١٩٤].

ومع هذا ضبط النص القرآني هذا القتال بضوابطه الشرعية والأخلاقية، كما نرى:

أ- فنهى عن الاعتداء: ﴿**وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾ البقرة: ١٩٠].

ب- وأمر برعاية حرمة المسجد الحرام: ﴿**وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ**﴾ [البقرة: ١٩١].

ج- كما أمر برعاية حرمة الشهر الحرام ما لم ينتهكوها: ﴿**الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ**﴾ [البقرة: ١٩٤].

د- الردُّ على اعتدائهم بمثله تأديبًا لهم، دون تجاوز: ﴿**فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ**﴾ [البقرة: ١٩٤].

هـ- الأمر بالتزام (تقوى الله) عل كل حال، فهي صمَّام الأمان، لحسن سلوك الإنسان: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ**﴾ [البقرة: ١٩٤].

٦- طور الجهاد القتالي المختلف فيه:

هذه الأطوار الثلاثة بالنسبة للجهاد القتالي متفق عليها بين العلماء، وهي:

أ- طَور الكف عن القتال والمنع منه: ﴿**كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ**﴾ [النساء: ٧٧].

ب- طور الإذن بالقتال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا...﴾ [الحج: ٣٩].

ج- وطَور الأمر بالقتال للذين يقاتلون المسلمين أو يفتنونهم في دينهم: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٠].

وبقي هناك أمر مختلف فيه بين أهل العلم، وهو (قتال مَن لم يقاتلنا في الدين، ولم يخرجنا من ديارنا، ولم يظاهر على إخراجنا).

فهناك من العلماء مَن يقول: إن الطور الرابع للجهاد - بالمعنى القتالي - هو (قتال المشركين كافة)، سالمونا أو حاربونا. وإن هذا ما انتهى إليه القتال، وما تفيده آيات سورة التوبة، وبخاصة ما سُمِّي (آية السيف).

ونقول: إنَّ هذا قد يكون مُسلَّمًا بالنسبة لمشركي العرب الذين أعلنوا الحرب على الدعوة من أول يوم، وحاولوا اغتيال الرسول قبل أن يهاجر، وحاربوه بعد أن هاجر، وغزَوه في عقر داره مرتين، وعاهدهم فنقضوا عهده، وغدروا بحلفائه، ولم تعُد الجزيرة تَسَعه وتَسَعهم، وفيهم نزلت أوائل سورة براءة، تنبِذ إليهم عهودهم المطلقة، وتوفِّي لكل ذي عهد مُحدَّد عهده إلى مدته. إلى آخر ما جاءت به السورة الكريمة. فإن كان هذا هو الطَور المقصود بالقتال، فلا نتوقف فيه، لكن نتوقف إذا قُصد قتال العالم كله، مسالمين ومحاربين.

ومن حقِّ هذه القضية الكبيرة والخطيرة: أن تفرد بالبحث، ويتَّسع فيها القول، فهي مجال تعترك فيه الأقلام، وتتصارع فيه الأفهام. ولا مناص لنا من مناقشتها مناقشة مستفيضة في ضوء الأدلة الشرعية، موازنين بين الآراء بالقسط، دون تحيُّز لقول قائل، وإن علا كعبه في العلم، وسَمَتْ منزلته في التقوى، فالحق لا يُعرف بالرجال، ولكن يُعرف بالدليل، فمَن كان أسعد بالدليل، كان أولى بالترجيح والتفضيل. وسنفصل ذلك في الباب الثالث بتوفيق الله.

***